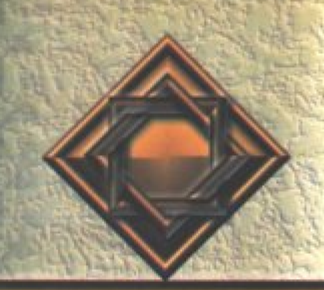








د. عبدالله شحاته





الاستسقاء

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات:

استسقى : طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته، قال أبو طالب يمدح النبى صلى الله عليه وسلم.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

والانفجار ، والانبجاس. والسكب بمعنى.

والمشرب : مكان الشرب.

ولا تعثوا فى الأرض : لا تعتدوا حال كونكم مفسدين.

تمهيد:

ذكر سبحانه فى هذه الآية نعمة أخرى آتاها بنى إسرائيل فكفروا بها ، ذلك انهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفح الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته. وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا باللوم على موسى إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر، ويصارحونه بالندم على ما فعلوا، فقد روى أنهم قالوا: من لنا بحر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام. وقالوا : من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى. وقالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر.

التفسير:

٦٠ - وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش وهم فى صحراء مجدبة فطلب موسى لهم السقيا من الله تعالى فأجابه الله إلى ما طلب وأوحينا إليه أن أضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بمقدار عدد الأسباط. وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره، وقلنا لهم: تمتعوا بما من الله به عليكم من المن والسلوى، واشربوا بما فجرنا لكم من الحجر الصلب من غير تعب منكم ولا مشقة.

ولا تنشروا فسادكم فى الأرض فتتحول النعم التى بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقد جاء هذا النهى عقب الإنعام عليهم بطيب المآكل والمشرب خيفة أن ينشأ الفساد فيهم بزيادة النعم عليهم، ولئلا يقابلوا النعم بالكفران.

قال تعالى: كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ. (العلق ٦، ٧)

والحجر الذى ضربه موسى لم يكن حجرًا معينا بل أى حجر من أحجار الصحراء. وأل فى الحجر

لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للعهد، ويكون المراد حجرًا معينًا معروفًا لموسى عليه السلام بوحى من الله تعالى.

وقد أورد المفسرون فى وصف هذا الحجر آثارًا حكم المحققون بضعفها.

(قال الحسن: لم يكن حجرًا معينًا بل أى حجر ضربه انفجر منه الماء، وهذا أظهر فى حجة موسى عليه السلام وأدل على قدرة الله، وقد سماه فى سفر الخروج الصخرة) (١٥٨).

والفاء فى قوله تعالى : فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا . للعطف على محذوف تقديره: ضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا، لأن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر سبطا، والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب، وهم ذرية أبناء يعقوب عليه السلام الاثنى عشر ، ففى انفجار الماء من اثنتى عشرة عينا إكمال للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر.

وقوله تعالى: كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ . مقول لقول محذوف تقديره وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق الله.

وبذلك تكون الآية الكريمة، قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة ونصحتهم بأن يشكروا الله وحذرتهم من الفساد والجحود.



غضب الله عليهم

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

المفردات:

الصبر : حبس النفس وكفها عن الشىء.

الطعام : مارزقوه فى التيه من المن والسلوى.

البقل : ما تنبته الأرض من الخضر ممايأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما.

الفوم : الحنطة وقال جماعة منهم الكسائى إنه الثوم.

القثاء : نوع من المأكولات أكبر حجمًا من الخيار، وتسميه العامة القتة.

والاستبدال : طلب شيء بدلا من آخر، وأصل الأدنى الأقرب ثم استعمل للأخس الدون.

والهبــوط : الانحدار والنزول.

المصــــر : البلد العظيم.

ضربت عليهم : أى أحاطت بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه أو ألصقت به.

الذلة : الذل والهوان.

المسكنة : الفقر ، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة.

تمهيد:

ذكر فى هذه الآية جرمًا آخر من جرائم أسلافهم التى تدل على كفرانهم بأنعم الله وترشد إلى أنهم دأبوا على إعنات موسى، وأنهم أكثروا من الطلب فيما يستطاع وما لا يستطاع حتى ييأس منهم ويرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة.

وقد بلغ من إعناتهم لموسى أن قالوا: **لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**. (البقرة: ٥٥) وأن قالوا: **لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ** . وهم يريدون بذلك أنه لا أمل لك من بقائنا معك على هذه الحال من التزام طعام واحد، وربما لم يكن صدر منهم هذا القول عن سأم وكراهية لوحدة الطعام، بل صدر عن بطر وطلب للخلاص مما يخشون.

التفسير:

واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم وفساد أذواقهم، وإعناتهم لنبيهم موسى – عليه السلام – حيث قالوا له ببطر وسوء أدب: لن نصبر على طعام المن والسلوى فى كل وقت، فسل ربك أن يخرج لنا مما تنبته الأرض من خضرها وفاكهتها وحنطتها وعدسها وبصلها، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى، فوبخهم نبيهم موسى –عليه السلام – وقال: أتختارون الذى هو أقل فائدة وأدنى لذة وتتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون.

انزلوا إلى أى مصر من الأمصار فإنكم تجدون فيه ما طلبتموه من البقول وأشباهها. وأحاطت بنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله، بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتكرار العصيان والعدوان منهم.

ملحقات التفسير:

١ – فى الآية ما يشعر بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى عليه السلام، إذ عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بحرف. لَن . المفيد لتأكد النفى فقالوا لن نصبر.

قال الحسن البصرى: (بطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قومًا أهل أعداس وبصل وبقل وثوم) (١٥٩).

٢ – وصفوا الطعام بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات. والعرب تقول لمن يجعل على مائدته فى كل يوم أنواعًا من الطعام لا تتغير إنه يأكل من طعام واحد «أو ضرب واحد لأنهما طعام أهل التلذذ، وهم كانوا أهل فلاحة فنزعوا إلى عادتهم واشتهوا ما ألفوه» (١٦٠).

٣ - جملة: أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ . من مقول موسى عليه السلام لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم وضعف عقولهم لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه خير منه وهو المن والسلوى. قال الطبرى : (أى قال لهم موسى: أتأخذون الذى هو أخس خطرًا وقيمة وقدرا من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطرا وقيمة وقدرًا، وذلك كان استبدالهم) (١٦١).

٤ - قوله تعالى : اهْبِطُوا مِصْرًا.

قال البيضاوى: أى انحدروا إليه من التيه. يقال هبط الوادى إذا نزل به وهبط منه إذا خرج منه.

وقال ابن كثير : مِصْرًا . هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف (١٦٢).

وقال الطبرى: (فأما القراءة بالألف والتنوين «اهبطوا مصرا») وهى القراءة التى لا يجوز عندى غيرها، لاجتماع مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك (١٦٣).

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: (قرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان بن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك فى مصحف أُبَى بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان رضى الله عنه (١٦٤).

والمعنى على القراءة الأولى: اهبطوا مصرا من الأمصار لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادى والفيافى، وإنما يكون فى القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموه ما سألتم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية: اتركوا المكان الذى أنتم فيه واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية ولا ترتاحون للفضائل النفسية، بل شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

٥ - قوله تعالى : وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . الفرق بين الذلة والمسكنة: أن الذلة هوان تجئ أسبابه من الخارج كأن يُغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو، أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل.

٦ - قوله تعالى : وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ . أى رجعوا منصرفين متحملين غضب الله، وقد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط (١٦٥).

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ .

ذَٰلِكَ . إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب.

والجملة الكريمة استئناف بيانى جواب عن سؤال تقديره: لمَ فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب فعلنا بهم ذلك بسبب كفرهم بآيات الله وبالمعجزات التى من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر ،أو بالكتب المنزلة كالإنجيل والفرقان(١٦٦).

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ . فإنهم قتلوا أشعياء وزكريا ويحيى وغيرهم. بِغَيْرِ الْحَقِّ . إذ لم يروا منهم ما يعتقدون به جواز قتلهم وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . أى جرهم العصيان والاعتداء والتمادى فيه إلى الكفر بالآيات وقتل النبيين، فإن صغار الذنوب سبب يؤدى إلى ارتكاب كبارها؛ كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحرى كبارها.

وقيل: كرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو بسبب الكفر والقتل فهو بسبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم على حدود الله تعالى. وقيل: الإشارة إلى الكفر والقتل والباء بمعنى مع (١٦٧).



الإيمان

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات:

آمنوا : صدقوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

هادوا : صاروا يهودًا يقال هاد يهود إذا دخل فى اليهودية، ويهود إما عربى من هاد إذا تاب، سموا بذلك لما تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام (١٦٨).

النصارى : جمع نصران بمعنى نصرانى كندامى وندمان والياء فى نصرانى للمبالغة، وهم قوم عيسى عليه السلام، سموا بذلك لأنهم نصروا المسيح عليه السلام، أو لأنهم كانوا معه فى قرية يقال لها نصران أو ناصرة فسموا باسمها أو من اسمها (١٦٩).

الصابئين: قوم بين النصارى والمجوس، وقيل: أصل دينهم دين نوح عليه السلام، وقيل: هم عبدة الملائكة، وقيل: عبدة الكواكب.

وقد شاهدت هذه الطائفة حين كنت فى العراق ويسمون الصبة، ولهم طقوس خاصة بهم فى الزواج والموت وغير ذلك. وهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء. ويشتهرون فى بغداد بسوق معينة تسمى سوق الصابئة حيث يشتغلون بضرب الفضة وتزيينها ونقشها، وبيع قطع الفضة والنيكل بعد زخرفتها.

والإيمان المشار إليه فى قوله تعالى:

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ . أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقًا بقلبه بالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه.

وقيل : من آمن من هؤلاء الكفرة إيمانا خالصًا ودخل فى الإسلام دخولا صادقا [١٧٠] فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . إن هؤلاء الذين آمنوا عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح لهم أجرهم العظيم عند ربهم ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعيم فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون.

قال الإمام الغزالى:

إن الناس فى شأن بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة:

١ - من لم يعلم بها بالمرة وهذا ناج حتما.

٢ - من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر فى أدلتها إهمالا أو عنادا واستكبارًا وهذا مؤاخذ حتما.

٣ - صنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعته ووصفه، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقنع تحدى بالنبوة كاذبًا، فهؤلاء عندى فى معنى الصنف الأول، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه. وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب . ا . هـ.



نقض العهد

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات:

الطور : هو الجبل المعروف الذى ناجى عليه موسى ربه - تعالى - ورفع الجبل فوق رءوسهم كان لإرهابهم بعظمة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما أوتوه. قال تعالى فى سورة الأعراف . وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ . (الأعراف : ١٧١) والنتق هو الهز والزعزعة والجذب والاقتلاع.

والخسران : ذهاب رأس المال أو نقصه.

التفسير:

٦٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ... هذا بيان لنعمة أخرى أنعمها الله على اليهود مع بيان

حالهم فيما عرض عليهم من التكاليف. أى واذكروا وقت أن أخذنا عليكم العهد بأن تتبعوا موسى وتعملوا بالتوراة التى يجيئكم بها من عند الله . وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ . تخويفًا لكم.

فعن ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن موسى - عليه السلام - لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع الطور فظلله فوقهم حتى أقبلوا، لأنهم ظنوا أنه واقع بهم(١٧١).

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ . المراد من القوة: الجد والاجتهاد كما قال ابن عباس: أى قلنا لهم، خذوا ما آتيناكم بجد واجتهاد مع حسن النية والإخلاص، فإن ذلك يدفعهم إلى النظر فى الآيات حتى يقتنعوا ويحسنوا العمل.

وهنا سؤال وهو أنه يؤخذ من الآية أن إيمانهم كان بالإلجاء والإكراه، وهذا ينافى التكليف الذى يقوم على الاختيار، فهو الذى يكوّن العقيدة الصحيحة المبنية على الإقناع ؛ ولهذا قال تعالى : لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (البقرة:٢٥٦) وقال لنبيه وكان حريصًا على إيمان الناس: .. أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس :٩٩)

والجواب أن الاختيار كان موكولا إليهم فى كل عروض الإيمان عليهم، ولما لم يمتثلوا، كانت آيات التخويف لهم بمنزلة مشروعية القتال للكفار، لإصلاح حالهم مع الله تعالى، فإن الحكمة تدعو إلى الأخذ بالقوة إذا فشل النصح والإرشاد، ولهذا ينبغى أن يؤدب الوالد بالقوة ابنه المعوج السلوك إذا لم ينفع معه تكرار النصح حتى لا يستمر فساده (١٧٢).

وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ : أى بعد أخذ الكتاب بقوة ادرسوا ما فيه وداوموا على تذكره حتى يرسخ فى قلوبكم، فإذا فعلتم ذلك صفت قلوبكم وارتقت فى السلوك إلى ربكم، وبهذا تصير نقية من أدران الرذائل، راضية مرضية عند ربها. والعاقبة للتقوى.

٦٤ - ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ . هذا بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، ونبذوه خلف ظهورهم، والمعنى ثم أعرضتم من بعد أخذ الميثاق عليكم وقبولكم إياه وذلك نقض للعهد تستحقون من أجله العقاب ولكن حال دون حلوله بكم فضل الله عليكم وإمهاله إياكم وتوفيقكم للتوبة، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم.

وبذلك تكون الآيات قد ذكرت بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقة أسلافهم ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم.



عقوبة اليهود

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

الاعتداء : تجاوز الحد فى كل شىء.

السبت : هو اليوم المعروف فى الأسبوع واعتداؤهم فيه تجاوزهم فى حكمه.

خاسئين : صاغرين مطرودين.

فجعلناها نكالا : النكال ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر به غيره. والمراد جعلنا عقوبتهم عبرة لغيرهم ، تنكلهم وتمنعهم عن مثل ما فعلوا.

لما بين يديها وما خلفها : للمعاصرين لها ولمن بعدها من الأمم.

الموعظة : ما يبقى من الكلام لاستشعار الخوف من الله بذكر ثوابه وعقابه.

عدوان السبت:

ملخص قصة اعتداء بنى إسرائيل فى السبت: أن الله تعالى أخذ عليهم عهدا بأن يتفرغوا لعبادته فى ذلك اليوم. وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد سبحانه أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم فابتلاهم بتكاثر الحيتان فى يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم قريبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك يوم السبت حياضا تنساب إليها المياه فى ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض فى يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجمع بين احترام ما عهد إلينا فى يوم السبت، وبين ما تشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهرى لأمر الله ولكنه فى حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد فى يوم السبت فلم يعبأ أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم. والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلا فى سورة الأعراف (١٧٣) كما جاءت الإشارة إليه فى سورتى النحل والنساء.

التفسير :

٦٥ - **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ..** : أى ولقد عرفتم نبأ الذين تجاوزوا منكم الحد الذى رسمه لهم الكتاب، وركبوا ما نهاهم عنه من ترك العمل الدنيوى، والتفرغ للعمل الأخروى يوم السبت.

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ . أى حولهم الله إلى قردة صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير أذلاء.

والخسوء: الطرد والإبعاد يقال: خسأت الكلب خسأ وخسوءا من باب منع - طردته وزجرته، وذلك إذا قلت له: اخسأ.

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

«وروى أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام»(١٧٤).

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أى أنهم مسخوا مسخًا نفسيًا فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل إليها أيديها.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: والآية ليست نصًا فى رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة، لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه من نوع الإنسان، إذ ليس من سننه فى خلقه، وإنما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله فى الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمره ويتنكب الصراط الذى شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان ويلحقه بعجماوات الحيوان وسنة الله واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية ا هـ.

وفى هذا تأييد لرأى مجاهد، روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: «مامسخت صورهم، ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظًا ولا تعى زجرًا».

وذاك على حد تمثيلهم بالحمار فى قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . (الجمعة :٥)

وقد نقل الحافظ ابن كثير آثارًا عن بعض الصحابة والتابعين، فى مسخ هؤلاء المعتدين على صورة القردة، وفى تفصيل قصتهم ثم قال: (قلت): والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان (معنويًا) لا (صوريًا) بل الصحيح أنه معنوى صورى والله تعالى أعلم(١٧٥).

٦٦ - فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . أى فجعلنا هذه العقوبة عبرة ينكل من يعلم بها، أى يمتنع من الاعتداء على حدود الله سواء منهم من وقعت فى زمانه أو من جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ . اى لهم، وهم من يقون انفسهم من عقاب الله من كل أمة، أو من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أو من بنى إسرائيل، خص المتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بالمواعظ.

قال الحافظ ابن كثير: المراد بالموعظة ها هنا الزجر، أى جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد (١٧٦).



البقـــــرة

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات:

البقـرة	: اسم الأنثى. والثور اسم الذكر.
اتتخذنا هزوا	: أتجعلنا موضع استهزاء أى سخرية.
الجهل	: هنا فعل ما لا ينبغى أن يفعل، وقد يطلق على اعتقاد الشىء بخلاف ما هو عليه.
لا فارض	: الفارض المسنة التى انقطعت ولادتها ، فمعنى لا فارض غير مسنة.
ولابكر	: البكر الصغيرة التى لم تحمل بعد.
عوان بين ذلك	: نصَف بين المسنة والفتية.
فاقع لونها	: الفاقع هو شديد الصفرة.
تسر الناظرين	: لحسنها.
إن البقر	: أى أن البقر الفاقع هو وسط بين الفارض والبكر.
تشابه علـينا	: لاشتراك كل بقرة مع مثيلتها فى الأوصاف المطلوبة، فلا نستطيع أن نفرق بين البقر فيها، حتى نحصل على البقرة المطلوبة.
وإنا إن شاء الله لمهتدون	: إلى عينها لنذبحها، يظهرون بقولهم هذا، أنهم يريدون معرفة ما وقعت مشيئة الله عليه من هذا النوع من البقر، بذكر وصف مميز للمطلوب.

الذلول	: الريض الذى زالت صعوبته، يقال دابة ذلول بينة، (الذل) بالكسر، ورجل ذلول بين الذل (بالضم)، فمعنى لا ذلول أى ليست مذللة وميسرة.
تثير الأرض	: أى تقلبها بالمحراث.
ولا تسقى الحرث	: أى ولا تروى الزرع.
مسلمة	: سليمة من العيوب وآثار العمل.
لاشية فيها	: لا لون فيها يخالف معظم جلدها، من وشى الثوب يشيه إذا زينه بخطوط مختلفة الألوان.
جئت بالحق	: جئت بحقيقة وصف البقرة ولم يبق فيها إشكال.
وما كادوا يفعلون	: وما قربوا من أن يذبحوها لغلاء ثمنها أو خوف الفضيحة.

قصة البقرة:

قال ابن كثير فى تفسيره (عن عبيدة السلمانى: قال: كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضًا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ** . قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام، فقالوا: من قتلك؟ فقال هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئا ولم يورث قاتل بعد) (١٧٧).

التفسير:

٦٧ - **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** . اى واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا وقت أن حدث فى أسلافكم قتيل ولم يعرف الجانى. فطلب بعض أهله وغيرهم من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله تعالى ليكشف لهم القاتل الحقيقى فقال لهم: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** .

ويجوز أن يكون المعنى، واذكر يا محمد الوقت الذى قال فيه موسى لقومه . . والأمر هنا لكل من يصلح للخطاب، ليعرف ما كان عليه بنو إسرائيل من اللجاجة والعناد والفرار من الرشاد: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً** . ليكون وسيلة إلى معرفة القاتل.

وتنكير لفظ (**بقرة**) يشير إلى أنهم لو ذبحوا أية بقرة بعد الأمر لكفتهم ولكنهم كعادتهم - شددوا بتكرار الأسئلة فشدد الله عليهم (١٧٨).

وقد أمرهم الله بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل، وفى أمرهم

بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبدوه وأحبوه، فكأنه سبحانه يقول لهم: إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة، لا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح.

وهذا استئناف بيانى، كأن سائلا قال: ماذا قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن أمرهم بذبح البقرة، فكان الجواب، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا. وهزوا أى سخرية وهو بتقدير مضاف أى: موضع هزو.

استبعدوا أن يكون ذبح البقرة له صلة بتبرئة المتهم بالقتل فظنوا لجهلهم أنه يسخر بهم، فسألوه مستنكرين.

أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا . وكان حقهم أن يمتثلوا، ولا يقولوا ما قالوا، فقد عرفوا فى رسولهم الجد فى أمره كله، ولاسيما ما ينقله لهم عن الله تعالى.

قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . أى التجئ إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين يروون عنه الكذب والباطل.

وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء، وهو المزاح الذى يخالطه احتقار واستخفاف بالممازح معه، لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلا عن رسل الله عليهم السلام.

قال الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين عليه رحمة الله:

«وقد نبهت الآية الكريمة على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب، ويقذف به فى عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل [١٧٩]. وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبر وخضوع، وليعمل به بتقبل وخضوع. ا هـ [١٨٠].

٦٨ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ .

أى قال بنو إسرائيل لموسى، بعد أن عرفوا من جوابه الجد: اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها وصفاتها [١٨١].

فقال لهم موسى إنه تعالى يقول: إن البقرة التى أمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصَف بينهما، فاتركوا الإلحاح فى الأسئلة وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به.

٦٩ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . قال بنو إسرائيل لنبيهم، مشددين على انفسهم بعد أن عرفوا صفة البقرة من جهة سنها، سل لنا ربك يبين لنا ما لونها، لكى يسهل علينا الحصول عليها فأجابهم بقوله: إنه تعالى يقول: إن البقرة التى أمرتكم بذبحها . صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا .

الفقوع: أشد ما يكون من الصفرة وأبلغه. ولذا يكون وصف الصفرة للتأكيد كأمس الدابر، وكما يختص الأصفر بالفاقع يختص الأسود بالحالك، والأخضر بالناضر، والأحمر بالقانى، والأبيض بالناصع.

قال ابن جرير الطبرى (والفقوع فى الصفرة نظير النصوع فى البياض وهو شدته وصفاؤه) [١٨٢] .

تَسُرُّ النَّاظِرِينَ . أى تعجبهم وتشرح صدورهم، لشعورهم باللذة القلبية لحسن منظرها، وجمهور المفسرين يقولون. إن الصفرة من الألوان السارة [١٨٣].

٧٠ - **قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** . كرروا سؤالهم الأول لطلب الاستكشاف الزائد بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها، فقالوا لموسى: سل من أجلنا ربك أن يزيد إيضاحًا لحال البقرة التى أمرنا بذبحها حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها نذبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها ومنفذون لما تكلفنا به.

وقولهم: **وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** : فيه تخفيف لصورة عنادهم وإتيانهم بالمشيئة لتحسين الظن بهم.

وفى الحديث، (لو لم يستثنوا - أى يقولوا إن شاء الله - لما بينت لهم صفتها إلى آخر الأبد) [١٨٤].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (وإنما لم يعتذروا فى المرتين الأوليين واعتذروا فى الثالثة لأن للثلاثة فى التكرير وقعًا من النفس فى التأكيد والسآمة وغير ذلك، ولذا كثر فى أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة) [١٨٥].

وقولهم: **لَمُهْتَدُونَ** . أى إلى المطلوب ذبحه منها أو إلى معرفة القاتل بسببها قال الطبرى: (وأما قوله تعالى: **وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** . فإنهم عنوا وإنا إن شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التى أمرنا بذبحها، ومعنى اهتدائهم فى هذا الموضع تبينهم أن ذلك الذى لزمهم ذبحه مما سواه من أجناس البقر) [١٨٦].

٧١ - **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا** . أى أنها بقرة لم تذلل بالعمل فى الحراثة والسقى، فلفظ .لا . نافية بمعنى غير . ولا . فى قوله تعالى: **وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ**. مزيدة لتوكيد الأولى لأن المعنى (لاذلول تثير وتسقى) [١٨٧]، وأعيد فى قوله: **وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ** . مراعاة للاستعمال الفصيح. قال ابن كثير: إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى الساقية بل هى مكرمة حسنة صبيحة لا عيب فيها ا هـ. ومعنى. **مُسَلَّمَةٌ**. أى سلمها الله من العيوب. ومعنى . **لاَّ شِيَةَ** : لا لون فيها يخالف جلدها الأصفر. والشية فى الأصل. مصدر وشاه يشيه وشيا وشية، إذا خلط لونه بلون آخر.

قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ . أى جئت بحقيقة وصف البقرة. وما بقى إشكال فى أمرها، ولا وجه لنا فى طلب الإيضاح بعد ذلك. **فَذَبَحُوهَا** . أى فحصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فذبحوها.

وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ. معناه وما قاربوا أن يفعلوا الذبح؛ والمقصود منه المبالغة فى تباطئهم وتعمدهم. إطالة الزمن بكثرة المراجعات فى وصف البقرة. وجملة. **وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**. حالية. قال الزمخشرى : **وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ**.

استثقال لاستقصائهم واستبطاء لهم، وإنهم لتطويلهم المفرط وكثرة استكشافهم ما كادوا يذبحونها، وما كادت تنتهى سؤالاتهم وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتعمقهم، وقيل وما كادوا يذبحونها لغلاء ثمنها، وقيل لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل، وروى أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ صالح له عجلة فأتى بها الغيضة وقال: اللهم إنى استودعتكها لابنى حتى يكبر ، وكان برًا بوالديه، فشبت وكانت من أحسن البقر وأسمنه، فساوموها اليتيم وأمه حتى اشتروها بملء مسكها ذهبًا وكانت البقرة إذ ذاك بثلاثة دنانير (١٨٨).

يؤخذ من الآية النهى عن كثرة السؤال، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ . (المائدة : ١٠١)

وروى الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم » (١٨٩).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: إذا أمرتك أن تعطى فلانا شاة سألتنى أضائن أم ماعز؟، فإن بينت لك قلت أذكر أم أنثى؟، فإن أخبرتك قلت أسوداء أم بيضاء؟، فإذا أمرتك بشىء فلا تراجعنى.

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الأغلوطات (١٩٠). أخرجه الإمام أحمد وفسره الأوزاعى وقال : هى شداد المسائل وما لا يحتاج إليه من كيف وكيف.

وقال الأوزاعى: إن الله إذا أراد أن يحرم عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقل الناس علمًا.



الحيـــاة

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ﴾

المفردات:

فادارأتم فيها : أى تدافعتم وتخاصمتم فى شأنها وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه.

والله مخرج ما كنتم تكتمون : أى مظهره مهما كتمتم.

التفسير:

٧٢ - وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا . .

واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفسا، فاختلفتم وتنازعتم فى قاتلها، ودفع كل واحد منكم التهمة عن

نفسه، والله عز وجل مخرج لا محالة ما كتمتم من أمر القاتل فقد بين سبحانه الحق فى ذلك **فقال على لسان** رسوله موسى عليه السلام.

اضربوا القتيل بأى جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة بإذن الله، وأخبر عن قاتله، ويمثل هذا الإحياء لذلك القتيل بعد موته يحيى الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شىء.

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخرها فى الذكر ليعدد على بنى إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بذبحها فتتقبلها بشغف واهتمام.

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم فى قوله: وَإِذْ قَتَلْتُمْ . مع أن القاتل بعضهم، للإشعار بأن الأمة فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد، ولأن المسئولية فى القتل مشتركة بين الجميع حتى يتعين القاتل فيبرأ من عداه.

وقوله تعالى: وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ : معناه، والله تعالى مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتيل الذى قتلتموه، ثم تنازعتم فى شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقى بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة: وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ . معترضة بين قوله تعالى: فَادَّارَأْتُمْ . وبين قوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا .وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقى سينكشف أمره لا محالة.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: (وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القتيل - مع أنه ليس أول قتيل طل دمه فى الأمم - إكراما لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم فى قومه وهو بين أظهرهم وبمرأى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة فى إظهار المطالبة بدمه، فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم ويبين سافكه لضعف يقين القوم برسولهم موسى عليه السلام ، ولكان ذلك مما يزيد شكهم فى صدقه فينقلبوا كافرين. فكان إظهار القاتل الحقيقى إكرامًا من الله تعالى لموسى ورحمة بالقوم لئلا يضلوا)(١٩١).

٧٣ - وقوله تعالى: فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ..

أى اضربوا القتيل ببعض البقرة المذبوحة ولاقطع بتعين هذا البعض، وإن قيل: إنه اللسان أو الفخذ أو عجب الذنب، فضربوه بجزء منها، فأحياه الله تعالى ونطق باسم القاتل ثم مات بعد أن أخبر به.

قال الزمخشرى: (فإن قلت: هلا أحياه ابتداء، ولمَ شرط فى إحيائه ذبح البقرة وضربه ببعضها؟ قلت: فى الأسباب والشروط حكم وفوائد، وإنما شرط ذلك لما فى ذبح البقرة من التقرب وأداء التكاليف، واكتساب الثواب، والإشعار بحسن تقديم القربة على الطلب، وما فى التشديد عليهم لتشديدهم، من اللطف لهم وللآخرين فى ترك التشديد والمسارعة إلى امتثال أوامر الله تعالى، وارتسامها على الفور من غير تفتيش وتكثير سؤال، ونفع اليتيم بالتجارة الرابحة، والدلالة على بركة البر بالوالدين، والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهازئ بما لا يعلم

كنهه، ولا يطلع على حقيقته، من كلام الحكماء، بيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتأنق فى اختيار ما يتقرب به، وأن يختاره فتى السن غير قحم ولا ضرع، حسن اللون بريئًا من العيوب، يونق من ينظر إليه، وأن يغالى بثمنه، كما يروى من عمر – رضى الله عنه – أنه ضحى بنجيبة بثلاثمائة دينار (١٩٢).

رأى تفسير المنار:

ذهب صاحب المنار إلى أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾. حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به الإحياء الحقيقى بعد الموت وأن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل إذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برئ من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية (١٩٣).

والذى نراه أن المراد بالإحياء فى قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾. الإحياء الحقيقى للميت بعد موته وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها ضعيف لما يأتى:

١ – مخالفته لما ورد عن السلف فى تفسير الآية (١٩٤).

٢ – قال تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وهى قرينة على أن المراد بالإحياء رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه فى مخالفة هذا الظاهر، ولا توجد قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل، ومادام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة (١٩٥) ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى الأحياء من الناس، وبإحياء الموتى تشريع العقوبات صونا لدماء الأحياء منهم. والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تعمية.

٣ – الإراءة فى الآية بصرية لا عقلية، وسياق الكلام يأبى أن يصرف عن الظاهر وخاصة قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾. (١٩٦).

★ ★ ★

قسوة القلوب

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات:

القسوة : اليبس والصلابة.

يتفجر : يتفتح ويتشقق بكثرة وسعة.

يهبط : يتردى وينزل.

الخشية : الخوف.

المناسبة:

وصف الله حال بنى إسرائيل بعد أن رأوا من آياته التى آتاها موسى عليه السلام ما رأوا، كانفجار الماء، ورفع الجبل، ومسخهم قردة، وإحياء القتيل إلى نحو ذلك، وصفهم بقسوة القلوب وضعف الوازع الدينى فيها، حتى أصبحت كالصم الصلاد بل أشد منها قسوة.

التفسير:

٧٤ - ثمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً . .

ثم صلبت قلوبكم - يا بنى إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات، منها إحياء القتيل أمام أعينكم فهى كالحجارة فى صلابتها ويبوستها، بل هى أشد صلابة منها لأن من الحجارة ما فيه ثقوب متعددة وخروق متسعة، فتدفق منه مياه الأنهار التى تعود بالمنافع على المخلوقات، ولأن منها ما يتصدع تصدعًا قليلا فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من رأس الجبل إلى الأرض من خوف الله وخشيته.

وقد شاهدوا كل ذلك حين ضرب موسى الحجر فتفجرت منه اثنتا عشرة عينا وشاهدوا الجبل يندك دكا حين تجلى الله له.

ولكن قلوبهم كلت وعميت وأغلقت مفاتيحها فلا تتأثر بموعظة، ولا تنقاد للخير، ولا تفعل ما تؤمر به، مهما تعاقبت عليها النعم والنقم والآيات.

والله تعالى حافظ لأعمالهم، يحصيها عليهم ثم يجازيهم بها، فهو سبحانه يمهل ولا يهمل، وهو بكل شىء عليم.

واسم الإشارة . ذَلِكَ . مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة، أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة فى الآيات السابقة.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾.

بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكأنه سبحانه يقول لهم: إن هذه الحجارة على صلابتها ويبوستها منها ما تحدث فيه المياه خروقًا واسعة تتدفق منها الأنهار الجارية النافعة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقًا مختلفة تنجم عنها العيون النابعة والآبار الجوفية المفيدة، ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعيه وامتثال، أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع ولا تتأثر بالعظات والعبر، ولا تنقاد للحكم التى من شأنها هداية النفوس. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. تهديد لهم وتخويف حيث إنه سبحانه سيحاسبهم على أعمالهم وسيذيقهم ما يستحقون من عقاب جزاء جحودهم لنعمه، وعصيانهم لأوامره.



تحريفهم كلام الله

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات:

أفتطمعون أن يؤمنوا لكم : الهمزة لإنكار طمع المؤمنين فى إيمان اليهود بعد ما علموا حالهم، أى استنكاره واستبعاده منهم، والفاء عطفت ما بعدها على مقدر، والتقدير: (أتحسبون قلوبهم صالحة للإيمان بعد ما علمتموه من حالهم، أفتطمعون أن يؤمنوا لكم) والمراد نهيهم عن الطمع بعد علمهم بحالهم.

فريق منهم : جماعة منهم.

كلام الله : المراد به التوراة.

فتح الله عليكم : بيَّن لكم خاصة، أو حكم وقضى عليكم.

ليحاجوكم : ليخاصموكم ويقيمون عليكم الحجة.

عند ربكم : أى فى كتاب ربكم وشرعه كما تقول: هو: عند الله كذا، أى كتابه وشرعه.

تمهيد :

انقضى المقطع السابق من السورة فى تذكير بنى إسرائيل بأنعم الله عليهم وجحودهم لهذا الإنعام المتواصل، وباستعراض مشاهد الإنعام والجحود، بعضها باختصار وبعضها بتطويل، وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت إليه قلوبهم فى نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجدب، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجدبها، (فالآن يأخذ السياق فى الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يحدثها عن بنى إسرائيل، ويبصرها بأساليبهم ووسائلهم فى الكيد والفتنة، ويحذرها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم، فلا تنخدع بأقوالهم ودعاويهم ووسائلهم الماكرة فى الفتنة والتضليل، ويدل طول هذا الحديث وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنصوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود) (١٩٧).

لقد كان النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه شديدى الحرص على دخول اليهود فى ساحة الدين الجديد، طامعين فى انضوائهم تحت لوائه؛ لأن دينهم أقرب الأديان إلى دينهم فى تعاليمه ومبادئه وأغراضه فهم يشتركون معهم فى الاعتقاد بالتوحيد والتصديق والبعث والنشور، وكتابهم مصدق لما معهم.

فقص الله فى هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم ما أزال أطماعهم وأيأسهم من إيمانهم.

التفسير :

٧٥ - أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

ما كان ينبغى لكم أيها المؤمنون أن تطمعوا فى أن يؤمن اليهود بدينكم وينقادوا لكم وقد اجتمعت فى مختلف فرقهم أشتات الرذائل التى تباعد بينهم وبين الإيمان بالحق، فقد كان فريق منهم (وهم الأحبار) يسمعون كلام الله فى التوراة ويفهمونه حق الفهم ثم يتعمدون تحريفه وهم يعلمون أنه الحق وأن كتب الله المنزلة لا يجوز تغييرها (١٩٨).

وجملة . وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ . حالية، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم، وبذلك يكون التقنيط من إيمانهم قد علل بعلتين:

إحداهما: ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة.

ثانيتهما: ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتعمد، وجملة . وَهُمْ يَعْلَمُونَ . حال مؤكد لاستهجان قبح ما اجترءوا عليه من التحريف.

والمعنى: إن كفر هؤلاء وحرفوا فلهم سابقة فى ذلك (١٩٩).

٧٦ - وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ .

وكان فريق من منافقيهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا مخادعين لهم آمنا بأنكم على الحق وأن محمدا هو النبى الذى جاء وصفه فى التوراة.

وإذا خلا بعضهم إلى بعض عاتبهم الفريق الآخر على غفلتهم إذ تنزلق ألسنتهم فى أثناء خداعهم للمؤمنين بعبارات تفيد خصومهم ولايستدعيها الخداع. أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟. اتخبرون المؤمنين بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التى كتمناها عنهم كالبشارة بالنبى وعلاماته، وأخذ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان به، وتبليغ أممهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه إن أدركوه. لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ. أى ليقيموا عليكم به الحجة فى كتاب ربكم وشرعه.

وقيل المراد بقوله : عِندَ رَبِّكُمْ . يوم القيامة، أى ليُحَاجُّوكُم به يوم القيامة، توبيخًا لكم، وزيادة فى فضيحتكم على رءوس الأشهاد؟.

وهذا الراى غير مقبول، فإنهم عالمون بأنهم محجوجون بما فى كتابهم يوم القيامة، حدثوا به أو أخفوه، فلا وجه لتوبيخ إخوانهم على إظهاره للمؤمنين، إذا كان المراد بقوله : عِندَ رَبِّكُمْ . يوم القيامة.

روى عن ابن عباس أن ناسا منهم أسلموا ثم نافقوا، فكانوا يحدثون المؤمنين بما عذب به آباؤهم، فقالت لهم اليهود: أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، أى بما حكم به عليكم من العذاب، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم؟.

وقيل: إن عليا لما نازل قريظة يوم خيبر سمع سب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانصرف إليه وقال: يا رسول، لا تبلغ إليهم، وعرض له. فقال: أظنك سمعت شتمى منهم لو رأونى لكفوا عن ذلك. ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا. فقال لهم : « أنقضتم العهد يا إخوة القردة و الخنازير أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته » فقالوا: ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا، من حدثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا [٢٠٠].

والتعبير بالفتح فى قولهم: بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ . للإيذان بأنه سر مكتوم وباب مغلق فى وجه غيرهم فلا ينبغى أن يطلع عليه سواهم.

٧٧ - أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ . كان اليهود يتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن يَقُولُوهَا بأفواههم للمسلمين، أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون لله عليهم حجة ولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى محيط بما يسرونه من أقوالهم عن المؤمنين، وما يعلنونه من النفاق، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم، وأنه مطلع رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحى على كيدهم فتحصل المحاجة، كما حدث فى آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم، فأى فائدة فى اللوم والعتاب، فليرتدعوا عن ذلك ولينزجروا، وليدخلوا فى الإيمان بقلوبهم.

والاستفهام فى: أَوَلَا يَعْلَمُونَ : إنكارى مؤذن بشناعة نفاق المنافقين منهم وقبح اللوم من أصحابهم لهم على إطلاع المؤمنين على صفة الرسول وغيرها فى التوراة مع علمهم أن الله يعلم سرهم ونجواهم.

★ ★ ★

أمانيُّ باطلة

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

المفردات:

أميون : جمع أمى وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب، منسوب إلى الأم، وإيذانا بأنه - فى الخلو عن العلم والكتابة - كما ولدته أمه.

أمانى : جمع أمنية، وهى فى الأصل ما يقدره الإنسان فى نفسه مأخوذة من منى إذا قدر، والمراد بها هنا الأكاذيب التى أخذوها عن شياطينهم المحرفين للتوراة كما قاله ابن عباس ومجاهد.

فويل لهم : الويل فى الأصل مصدر لا فعل له من لفظه، مثل ويح، والمعنى هلاك لهم وشدة عذاب، وهى كلمة دعاء.

التفسير:

بعد أن بين سبحانه جنايات اليهود فى ماضيهم وحاضرهم وفى جملتها تحريفهم لكتاب الله التوراة، من بعد ما عقلوه، عقب ذلك بذكر فريق جاهل منهم تأثر بتحريف أحبارهم وضل بإضلالهم وهم الأميون.

٧٨ - **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ** . اى ومن اليهود قوم أميون لايحسنون الكتابة، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماؤهم، أو أمنيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق، أو قراءات عارية من التدبر والفهم، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبنى على البرهان القاطع والدليل الساطع.

(ومن هذه الأمنيات والأكاذيب: أن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأن الله سبحانه وتعالى يعفو عنهم ويرحمهم، وإن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة، وأنهم صفوة الإنسانية وشعب الله المختار لعمارة الأرض، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن لهم السيطرة على الناس، وغير ذلك من الأمانى التى عنوها فهؤلاء ضلوا، تبعا لأضاليل أحبارهم) [(٢٠١)].

ومن قوله تعالى **وَإِنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ** . زيادة تجهيل لهم، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملهما الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين، وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق، فهم ليسوا على يقين من أمور دينهم، وإنما هم يظنون ظنا بدون استيقان، والظن لا يغنى من الحق شيئًا.

ثم أنذر سبحانه الأحبار المحرفين للحق بالهلاك فقال:

٧٩ - فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ.

أى هلاك عظيم لهؤلاء الذين يحرفون كتاب الله وهو التوراة، إذ يكتبونها بأيديهم ويدسون فيها أكاذيبهم وما يحفظ عليهم رياستهم وجاههم، موهمين العوام أنها من عند الله ليحملوهم على اعتقادهم، والتعلق بالأمانى التى زينوها فى التوراة: يبتغون بهذا الفعل ثمنًا قليلاً هو الاحتفاظ بالرياسة، وأكل أموال الناس بالباطل، وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة، وهى افتراء الكذب على الله، ويختارون الباطل وينبذون الحق فيكونون بذلك كمن يبيع شيئًا نفيسًا غالى القيمة بثمن تافه.

قال السدى: كان ناس من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمنًا قليلاً (٢٠٢).

وقال الزهرى عن ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتاب الله الذى انزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرأونه غضا لم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا سألكم عن الذى أنزل عليكم (٢٠٣).

ومن أسباب تحريف التوراة، ضعف علماء اليهود وانصراف الناس، عنهم فعمد العلماء إلى أمور ترغب الناس فيهم وألحقوها بالتوراة وقالوا: هذا من عند الله ليقبلوه عنهم فتتأكد رياستهم، وكان مما أحدثوا فيها أن قالوا: لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ (آل عمران : ٧٥). يعنون بالأميين العرب، ويعنون بأنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل. أن ما أخذوا من أموالهم فهو حل لهم، ومنه قولهم: لا يضرنا ذنب فنحن أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسنا إلا أيامًا معدودات، إلى غير ذلك مما كذبهم الله فيه فقال : فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ. من تحريف كلام اللّه وتبديله وسوء تأويله وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ. بالباطل من جاه ورياسة ومال.



غرور وادعـــاء

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

المفردات:

لن تمسنا النار : لن تصيبنا، والمس: اتصال أحد الشيئين بالآخر وإصابته له.

أياما معدودة : يضبطها العد فهى إذن قليلة، والعرب تقول: شىء معدود أى قليل، وغير معدود أى كثير.

بلى : حرف جواب كنعم، إلا أنها لا تقع إلا جوابًا لنفى متقدم سواء أدخله استفهام أم لا، وتفيد إثبات ما بعدها.

الكسب : جلب النفع واستعماله فى السيئة من باب التهكم.

وأحاطت به خطيئته : الخطيئة : السيئة التى استمكنت من النفس وحملتها على تجنب الصواب عمدًا.

وإحاطتها به : شمولها له واستيلاؤها على جميع تصرفاته، كما يحيط الثوب بلابسه.

تمهيد : -

ذكر اللّه فى هذه الآية ضربًا من ضروب غرورهم وصلفهم وادعائهم أنهم شعب اللّه المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهو لا يعذبهم دومًا بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبيب حبيبه وقتًا قصيرًا ثم يرضى عنهم .

التفسير:

٨٠ - **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** . أكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة فمن لم تدركه النجاة يمكث فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم. وقيل إنها تمسهم أربعين يومًا، هى المدة التى عبدوا فيها العجل.

روى الإمام أحمد والبخارى والنسائى وابن مردويه واللفظ له عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اجمعوا لى من كان من اليهود هنا ».

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أبوكم؟ » قالوا: فلان. قال: « كذبتم بل أبوكم فلان » فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: « هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن

كذبناك عرفت كذبنا كما عرفت فى أبينا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل أنتم صادقى عن شىء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟ فقالوا: نعم. فقال: (فما حملكم على ذلك؟ فقالوا: أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك وإن كنت نبيًا لم يضرك » (٢٠٤).

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ . أى أعهد إليكم ربكم بذلك ووعدكم به وعدًا حقًا؟ إن كان كما تقولون فلن يخلف الله عهده.

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ . أى أم أنتم تقولون على الله شيئا لا علم لكم به، فإن مثله لا يكون إلا بوحى يبلغه الرسل عنه وبدون هذا يكون افتياتا على الله وجراءة عليه، لأنه قول بلا علم فهو كفر صراح.

وخلاصة هذا: إن مثل ذلك القول يحتمل أمرين لا ثالث لهما:

إما اتخاذ عهد عند الله به، وإما القول عليه سبحانه بدون علم، وما دام قد ثبت أن اتخاذ العهد لم يحصل، إذًا فأنتم يا معشر اليهود كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أيامًا معدودة.

قال الإمام الرازى: قوله تعالى: **أَتَّخَذْتُمْ** . ليس باستفهام بل هو إنكار لأنه لا يجوز أن يجعل الله تعالى حجة رسوله فى إبطال قولهم أن يستفهم بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال، وهى أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعى وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير (٢٠٥).

٨١ - **بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** . أى ليس الأمر كما ذكرتم، بل تمسكم النار وتمس غيركم دهراً طويلاً ، فكل من أحاطت به خطيئاته، وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، واسترسل فى شهواته، وأصبح سجين آثامه فجزاؤه النار خالدًا فيها أبدا لما اقترف من أسبابها بانغماسه فى الشهوات التى استوجبت ذلك العقاب، والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله، وصاحبه مخلد فى النار، وبعض العلماء حمل السيئة على معناه العام، وقال إن الخلود هنا المكث الطويل بمقدار ما يشاء الله، فالعاصى مرتكب الكبائر يمكث فيها ردحًا من الزمان ثم يخرج منها متى أراد الله تعالى (٢٠٦).

وفى الآية تحذير من ارتكاب السيئات، فإنها تؤدى إلى التمادى فيها فلا يبالى صاحبها بالكفر، فعلى من يرتكب سيئة أن يبادر بالتوبة منها، فإن لم يبادر بها، أحاطت الخطيئة بقلبه فأصبح مظلمًا لا ينفذ إليه النور، فيكفر والعياذ بالله تعالى.

روى الإمام أحمد والترمذى والحاكم والنسائى وغيرهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: « إن العبد إذا اذنب ذنبًا نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن: كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٢٠٧).

٨٢ - **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** . أى والذين آمنوا بالله ورسوله

وأطاعوا الله فأقاموا حدوده وأدوا فرائضه واجتنبوا محارمه، فأولئك هم أصحاب الجنة الجديرون بدخولها والخلود فيها خلودًا أبديًا.

وفى هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معا، كما روى أن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا وأقلل فيه لعلى أعيه، فقال له النبى (ﷺ) « قل آمنت بالله ثم استقم » (٢٠٨) رواه مسلم.



الميـــثاق

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات:

الميثاق : العهد المؤكد، وهو قسمان: عهد خلقة وفطرة، وعهد نبوة ورسالة وهو المراد هنا، وهذا العهد أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم..

وبالوالدين إحسانا : أى تحسنون بالوالدين إحسانا مطلقا بلا حدود.

والمساكين : الذين أذلتهم الحاجة وأسكنتهم.

وقولوا للناس حسنًا : أى قولوا لهم حسنا وهو ما تطيب به النفوس ومنه الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر فى غير عنف ولا خشونة.

التفسير:

٨٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من ينتفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد وأمرناكم بالعمل على لسان رسلنا عليهم السلام، وأمرناكم فيه بألا تعبدوا سوى الله، وأمرناكم فيه كذلك بأن تحسنوا إلى آبائكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم، وأمرناكم فيه أيضًا أن تقولوا للناس قولا حسنًا فيه صلاحهم ونفعهم، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق وأعرضتم عنه إلا قليلا منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

وقد تضمنت الآية الكريمة لونا فريدا من التوجيه المحكم الذى لو اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تعالى عليهم، بأن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئًا، ثم ثنت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية. ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة وقرابة من جهة الأب والأم، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة، ثم باليتامى لأنهم فى حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحانى، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة والمعاملة الحسنة، لأن الناس إن لم يكونوا فى حاجة إلى المال فهم فى حاجة إلى حسن المقال، ثم أرشدتهم إلى العبادات التى تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق، فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخضوع وإخلاص، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين البدنية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، تفخيمًا لشأنهما وتوكيدًا لأمرهما، وكان من الواجب على بنى إسرائيل أن ينتفعوا بهذه الأوامر الحكيمة، ولكنهم عموا وصموا عنها فوبخهم القرآن الكريم بقوله: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ.

فقد أفصحت الآية عما كان من أكثرهم، بعد أخذ الميثاق عليهم، بما فيه خيرهم وسعادتهم - وهو أنهم تولوا عن العمل به، وهم معرضون غير مكترثين بما يترتب على إعراضهم، أما القليلون منهم فإنهم التزموا العمل بالميثاق، وحافظوا على تنفيذه وهم المخلصون فى إيمانهم من أسلافهم - قبل أن تنسخ شريعتهم بالإسلام - ومن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم وحافظ على هذا الميثاق الموجود فى سائر الأديان كعبد الله بن سلام وزيد بن سعنة.

وقوله: وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ. لتأكيد توليهم، أى ثم توليتم وأعرضتم عن تنفيذ هذا الميثاق وأنتم قوم عادتكم التولى والإعراض عن المواثيق، وهى عادة ورثتموها عن آبائكم، ويؤخذ كونها عادة لهم من الجملة الاسمية الدالة على الثبوت. وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ.

وفى الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب للحاضرين من اليهود فى قوله: ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ لأنهم خلف لهؤلاء السابقين، فى السير على نهجهم فى نقض العهود وعدم احترام المواثيق فإنهم هم، فلذا خوطبوا بتوليهم وإعراضهم.

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار (قد يتولى الإنسان منصرفا عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه، ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شىء معرضا عنه ومهملاً له على طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا القيد وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ. لازما لابد منه وليس تكرارًا كما يتوهم) (٢٠٩).

★ ★ ★

تنـــاقض

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

المفردات:

لا تسفكون دماءكم : تريقونها، بأن يقتل بعضكم بعضا.

تظاهرون عليهم : أصله تتظاهرون، فحذفت إحدى التاءين تخفيفًا، أى تتعاونون عليهم.

الإثم : هو الفعل الذى يستحق صاحبه الذم، واللوم.

العدوان : تجاوز الحد فى الظلم.

أسارى : جمع أسير بمعنى مأسور، وهو من يؤخذ فى سبيل القهر والغلبة.

تفادوهم : تنقذوهم بدفع الفداء، وهو ما يدفع فى فك الأسير.

خزى : هوان.

يردون : يرجعون.

اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة : آثروا متاعها على نعيم الآخرة.

تمهيد:

ذكر الله بنى إسرائيل فى الآية السابقة، بأهم الأوامر التى أخذ عليهم العهد والميثاق أن يفعلوها.

وهنا ذكرهم بأهم المنهيات التى أخذ الميثاق عليهم فى التوراة بأن ينتهوا عنها فلم ينتهوا.

جاء فى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير:

يقول الله منكرا على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا فى الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهود أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، وينهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ولهذا قال تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . (٢١٠).

ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيِّرون اليهود فيقولون لهم كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان اليهود يقولون: قد حرم علينا قتالهم ولكننا نستحى أن نخذل حلفاءنا، وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا.

المعنى الإجمالى للآيات:

واذكروا - أيضا - يا بنى إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأوصينا فيه بألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل، وبألا يخرج بعضكم بعضا من مساكنهم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد والالتزام به.

ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه، خرجتم على تعاليم التوراة، فنقضتم عهودكم وأراق بعضكم دماء بعض، وأخرجتم إخوانكم فى الملة والدم من ديارهم وتعاونتم على قتلهم وإخراجهم مع من ليسوا من ملتكم أو قرابتكم ، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم فى الأسر فاديتموهم، فلم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم، كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم، وكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى فى أيدى عدوهم؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله، جزاء فاعله الهوان فى الدنيا والعذاب الدائم فى الآخرة، وما الله بغافل عما تفعلون، ولاشك أن أولئك اليهود الذى نقضوا عهودهم وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، قد باعوا دينهم بدنياهم فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

فى أعقاب التفسير:

١ - جعل الله الأمة المتواصلة بالدين وحدة متكاملة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا فإذا اعتدى أحد على أخيه فكأنما يعتدى على نفسه ويضعف نفسه.

قال ابن كثير:

ولهذا قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ . أى: لا يقتل بعضكم بعضًا ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه كما قال تعالى:

فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ . (البقرة : ٥٤) وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال-عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (٢١١).

٢ - وقال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار:

وقد أورد سبحانه النهى عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضا من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث فى النفس أثرًا شريفا، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر ووجدان يتأثر فقال تعالى:

لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ . فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بخع نفسه وانتحر بيده، وقال تعالى: **وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ** . على هذا النسق، وهذا التعبير المعجز ببلاغته، خاص بالقرآن الكريم (٢١٢).

٣ - قوله تعالى: **وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ** . بيان لتناقضهم وتزييفهم لأحكام الله تعالى.

أى أنتم يا معشر اليهود إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون فى فكاكهم، وتبذلون عوضًا لإطلاقهم، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى فى أيدى أعدائكم. فلماذا لم تتبعوا حكم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها فى مفاداتهم؟.

وصدرت الجملة الكريمة: **وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ** . بضمير الشأن للاهتمام بها والعناية بشأنها، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم وليس خافيًا عليهم، وقوله تعالى: **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** . توبيخ وتقريع لهم على تفريقهم بين أحكام الله.

والمعنى: أفتتبعون أحكام كتابكم فى فداء الأسرى، ولا تتبعونها فى نهيكم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه تعالى، بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر.

قال الأستاذ أحمد شاكر معلقا على تفسير ابن كثير للآية الكريمة:

(ومما يملأ النفس ألما وحزنا، أن صار أكثر الأمم التى تنسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه، ووقعوا فى مثل هذا العمل الذى ذم الله اليهود من أجله، وجعل جزاء من يفعله خزيًا فى الحياة الدنيا وعذابًا شديدًا فى الآخرة، فنرى أكثر الأمم المنتسبة إلى الإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويعرفونه، ويزعمون القيام بأمره - ثم هم يخالفونه فى التشريع فى شئونهم المالية والجنائية والخلقية، ولا يستحون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله فى سنته لا يوافق هذا العصر، ويجعلون من حقهم أن يشرعوا ما شاءوا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه، أو يصطنعون قوانين أوروبا الوثنية الملحدة، ويشربونها فى قلوبهم، يزعمونها أهدى وأنفع للناس مما أنزل إليهم من ربهم، ولا يتعظون بما أنذرهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم) (٢١٣).

يقول الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين: «وإنما سمى سبحانه عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كفرًا، لأن من عصى أمر الله تعالى بحكم عملى معتقدًا أن الحكمة الصلاح فيما فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون فى قلبه أثر من التحرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وفى الآية الكريمة دليل واضح على أن الذى يؤمن ببعض ما تقرر فى الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل فى زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ» (٢١٤).

لقد توعد الله من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه بالخزى والمذلة فى الدنيا، وبأشد ألوان العذاب يوم القيامة ثم أكد سبحانه هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى: أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ.

والمعنى : أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله، وباعوا دينهم بدنياهم وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون من دون الله وليا ولا نصيرًا.



تكذيب وقتــل

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

المفردات:

الكتاب	: التوراة.
وقفينا من بعده بالرسل	: أى بعثناهم على إثره إليهم يقال: قفاه به أى اتبعه إياه وأرسله على إثره.
عيسى	: بالسريانية يسوع.
مريم بالعبرية	: الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس.
وأيدناه	: قويناه، من آد الرجل إذا اشتد وقوى.
بروح القدس	: القدس الطهارة. وروح القدس هو جبريل عليه السلام أى الروح المطهر.
غلف	: جمع أغلف أى: مغشاة بأغلفة مانعة من وصول الهدى إليها..

تمهيد:

جرت سنة الله فى البشر أنه إذا طال عليهم الأمد بعد أن يأتيهم الرسل تقسو منهم القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، ويفسقون عن أمر ربهم ، قال تعالى: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. (الحديد:١٦)، من أجل هذا كان سبحانه يرسل الرسل بعضهم إثر بعض حتى لا يطول الإنذار فتقسو القلوب، وقد كان الشعب الإسرائيلى أكبر الشعوب حظًا فى عدد الرسل الذين أرسلوا إليهم، فليس لهم من العذر ما

يسوغ نسيان الشرائع أو تحريفها وتأويلها، ولكن كانوا يطيعون أهواءهم ويتبعون شهواتهم ويعصون رسلهم فمنهم من كذبوه ومنهم من قتلوه.

التفسير:

٨٧ – وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ . هذا تذكير من الله لبنى إسرائيل بضرب من النعم التى أنعم بها عليهم فقابلوها بالكفر والعصيان. وهى أن الله سبحانه أرسل موسى عليه السلام إليهم، وآتاهم التوراة فيها هدى ونور لهدايتهم فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها.

وأرسل الله الرسل والنبيين من بعد موسى ليحكموا بشريعته ويقتفوا أثره [٢١٥].

ومن هؤلاء الرسل: يوشع وداود وسليمان وعزير وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى عليهم السلام، فلم يكن لبنى إسرائيل عذر يعتذرون به عن مخالفة الشرائع أو تحريفها أو تغيير أوضاعها.

فقد توالت الرسل بعد موسى ليتوالى تفسير التوراة بما تلاها من أسفار رسل بنى إسرائيل، ولطول الفترة بين موسى وعيسى فقد كانت خمسًا وعشرين وتسعمائة وألف سنة على ما قيل. قال تعالى : ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا (المؤمنون : ٤٤).

حتى ختم الله أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مريم فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات – وهى المعجزات – ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. قال تعالى:

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ . أى أعطاه الله الآيات الواضحة الدالة على نبوته، كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، والإخبار ببعض المغيبات، وكذلك آيات الإنجيل.

وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أى قواه الله بجبريل الأمين الذى يؤيد الله به أنبياءه.

قال ابن كثير:

وروح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير الآية وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره مع قوله تعالى:

نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) (الشعراء :١٩٣- ١٩٤)

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان بن ثابت منبرًا فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: « اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك » [٢١٦].

رواه البخارى، ورواه أبو داود والترمذى موصولا، وقال الترمذى حسن صحيح.

وعن أبى هريرة: (أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبى هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أجب عنى، اللهم أيده بروح القدس؟ فقال: اللهم نعم) [٢١٧].

وفى بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم – وجبريل معك»[٢١٨].

«وإنما خص عيسى عليه السلام بالذكر من بين أنبياء بنى إسرائيل لكونه صاحب كتاب نسخ بعض أحكام شريعة موسى عليه السلام»[٢١٩].

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟

أى أبلغ بكم الأمر أنكم كلما جاءكم رسول من رسلى بغير الذى تهوى أنفسكم استكبرتم عليه تجبرًا وبغيًا فى الأرض؟

فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ . أى فبعضًا منهم تكذبون كعيسى ومحمد عليهما السلام وبعضًا تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام. فلا عجب بعد هذا إن لم تؤمنوا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن العناد والجحود من طبعكم.

٨٨ – وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ . أى أمر اليهود على العناد الكفر وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم معللين عدم إيمانهم بأن قلوبهم مغشاة بأغطية لا ينفذ منها إلى قلوبهم ما جاء به – صلوات الله عليه – حتى تفقه عقولهم.

على حد قول مشركى مكة. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ .(فصلت : ٥).

يعنون أن قلوبهم ليس فيها استعداد لقبول ما جاء به النبى – صلى الله عليه وسلم – وقد كذبوا، فإنه دين الفطرة، فلو تركوا فطرتهم كما خلقت عليه لقبلته وآمنت به، ولكنهم استكبروا وآثروا الضلالة على الهدى فلعنهم الله بكفرهم وأوهن يقينهم.

بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ . و. بَل . هنا للإضراب الإبطالى، ورد ما يقولون أى: ليس الأمر كما زعموا بل أبعدهم الله عن رحمته بأن خذلهم وتركهم وشأنهم، بسبب إصرارهم على الكفر وعنادهم فى قبول الحق، فاستحقوا أن يحرمهم الله من لطفه ورحمته. وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (آل عمران : ١١٧).

فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ . أى فهم يؤمنون إيمانا قليلا، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وتحريف بعضه الآخر أو ترك العمل به، والذين آمنوا به كان قولا باللسان تكذبه الأعمال، إذ لم يكن للإيمان سلطان على قلوبهم، فيكون هو المحرك لإرادتهم، وإنما يحركها الهوى والشهوة، ويصرفها عامل اللذة.

وقد يكون المعنى كما قال ابن جرير الطبرى: إنه لا يؤمن بالنبى صلى الله عليه وسلم وما جاء به إلا القليل منهم ،فالمخالفة لم تغير كل الشعب، بل غيرت الأكثر منهم ونجا نفر قليل.

★ ★ ★

حسد وبغى

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) ﴾

المفردات :

يستفتحون : يستنصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح والنصرة.

فلعنة الله : اللعنة: الإبعاد والطرد من مواقع رحمة الله.

اشتروا به : شرى واشترى يستعملان حينا بمعنى باع، وآخر بمعنى أخذ والمراد هنا الأول.

بغيا : البغى فى الأصل الفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شىء.

باءوا : رجعوا.

مهين : فيه مهانة وإذلال.

وراءه : سواه كما يقول الرجل لمن يتكلم بجيد الكلام ما وراء هذا الكلام شىء.

تمهيد:

كانت اليهود تبشر العرب بنبى سيظهر، ويقولون للعرب سنتبعه وننتصر به عليكم ، فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم من نسل إسماعيل ولم يكن من نسل إسحاق تركوا دعوته حسدًا وكبرًا.

روى محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ ابن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث». وتصفونه بصفته ! فقال سلام بن مسلم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه، وما هو بالذى كنا نذكركم فأنزل الله فى ذلك من قولهم. ولمَّا جاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ .

التفسير :

٨٩ -وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

ولما جاءهم رسولنا بالقرآن وهو كتاب من عند الله مصدق لما أنزل عليهم من التوراة وموافق له فى التوحيد وأصول الدين ومقاصده. وكانوا يستنصرون بهذا النبى على مشركى العرب وكفار مكة ويقولون إن كتابه سينصر التوحيد الذى جاء به موسى، ويخذل الوثنية التى تنتحلونها.

فلما جاءهم الكتاب الذى عرفوا أنه من عند الله كفروا به، وسبب هذا أنهم حسدوا العرب على أن بعث الله محمدًا - صلى الله عليه وسلم - من بينهم فحملهم ذلك على الكفر به جحودا وعنادًا فسجل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحمته لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم.

وقيل إن المراد بلفظ. مَّا عَرَفُوا . هو النبى صلى الله عليه وسلم واستعمال. مَّا . فيمن يعلم كثير كقوله تعالى: وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . (الشمس : ٥) يعنى ومن بناها وعلى هذا تكون جملة. كَفَرُوا بِهِ . جوابًا عن. فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا .

أما جواب: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ . فمقدر تقديره كذبوه، وقد دل عليه جواب الثانية. والمعنى عليه: فلما جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى عرفوا صفاته ونبوته من التوراة معرفة لا يخالجها ريب حسدوه لأنه من العرب أولاد إسماعيل وملأ الحسد قلوبهم غيظًا، ألا لعنة الله على أمثالهم من المعاندين الجاحدين.

٩٠ - بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

كان اليهود ينتظرون بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فلما جاءهم حسدوه واستبدلوا بالإيمان الذى هيأ الله لهم أسبابه ليسعدوا .. استبدلوا به الكفر الذى يؤدى بهم إلى الشقاء الدائم، وآثروه عليه فكان اختيارهم الكفر على الإيمان، بمنزلة بيع أنفسهم بالكفر إلى النار.

ولما كانت الخسارة فى ذلك الاستبدال عظيمة قال سبحانه: بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ. أى بئسما باعوها به . أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . فالكفر هو الثمن الذى باعوا به أنفسهم والمشترى الشيطان أو جهنم، وكل ذلك من باب التصوير والتمثيل لتهويل سوء ما اختاروه وتقبيحه.

وقوله تعالى: بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه، أى كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بدافع من البغى والحقد ناقمين على غيرهم أن خصهم الله دونهم بإرسال رسول منهم منكرين على الله أن يكون له مطلق الخيرة فى أن ينزل من فضله على من يشاء من عباده.

فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ .أى استوجبوا واستحقوا ورجعوا بغضب شديد مؤكد لصدوره من الله تعالى.

وقال ابن عباس: فالغضب على الغضب: غضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم، وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى أحدث الله إليهم [٢٢٠].

وقال الزمخشرى: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾. فصاروا أحقاء بغضب مترادف لأنهم كفروا بنبى الحق وبغوا عليه.

وقيل كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل بعد قولهم - عزير ابن الله، وقولهم: يد الله مغلولة، وغير ذلك.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. أى ولهم عذاب مهين مذل جزاء كفرهم واستكبارهم، وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا والآخرة.

٩١ - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾. أى وإذا دعوا إلى الإيمان والتصديق بما أنزل الله على نبيه محمد أنكروا وعارضوا وقالوا مستكبرين: إنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل على أنبيائهم، زاعمين أنه لا حق إلا عندهم يريدون بذلك أن يتحكموا فى وحى الله وفضله.

﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾. أى وهم يكفرون بما سوى التوراة وهو القرآن الذى جاء مصدقا لها، وهو الحق الذى لا شك فيه، وكيف يكفرون به وهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل. ثم إن كفرهم بهذا الكتاب المصدق لما فى كتابهم هو كفر بكتابهم نفسه.

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. أى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾. قل لهم: إن كنتم حقًا مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلأى شىء تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم.

إن قتلكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا، لا بما أنزل عليكم ولا بغيره، وأنكم كاذبون فى مدعاكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يحرم قتل الأنبياء ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم.

ويرجع معنى الآية إلى نفى فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر عن عاقل فتقول له: إن كنت عاقلا فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والفاء فى قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾. واقعة فى جواب شرط محذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله تعالى. وقد نسب القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم، لبيان وحدة الأمة وتكافلها، وأنها فى الطبائع والأخلاق المشتركة كالشخص والواحد، فما يصيبها من حسنة أو سيئة، فإنما مصدره الأخلاق الغالبة عليها فما حدث منهم كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع فيها الآخرون الأولين. إما بالعمل بها، وإما بترك الإنكار لها، (وللإشعار بأن الخلف يمشون على عماية السلف فى التعدى والعصيان، فلقد حاول اليهود المعاصرون للعهد النبوى قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله تعالى عصمه منهم ونجاه من مكرهم).

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: أَنبِيَاءَ اللَّهِ . للتنبيه على شرفهم العظيم، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجتراحهم المنكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق والتوقير والطاعة.



عصيان ومخالفة

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣) ﴾

المفردات:

البينات : جمع بينة وهى الآيات الدالة على صدقه، وحقيقة نبوته، كانقلاب العصا حية، وفلق البحر، وانفجار العيون من الحجر.

العجل : هو ما صنعه لهم السامرى من الحلى تمثالا على صورة العجل.

الطور : هو الجبل المعروف فى شبه جزيرة سيناء.

واشربوا فى قلوبهم : أشرب قلبه كذا أى حل محل الشراب، كأن الشىء يساغ فهو يسرى فى قلب المحب ويمازجه كما يسرى الشراب العذب البارد فى اللهاة، وحقيقة أشربه كذا: جعله شاربًا له.

التفسير:

٩٢ - وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . أى ولقد أرسلنا إليكم موسى بالآيات الواضحة، والأدلة القاطعة، والبراهين الناصعة على توحيد الله وعظيم قدرته، فخالفتم ذلك وعصيتم أمره، وعبدتم عجل السامرى من بعد ذلك، فهذا ظلم ووضع للشىء فى غير موضعه اللائق به، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله تعالى. وعبدتم العجل الذى لا يملك ضرًّا ولا نفعًا (٢٢١).

والتعبير بالجملة الاسمية: وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . فيه دلالة على ثبات الظلم واستقراره فيهم، وأنه شأن من شئونهم، ولقد سبق التبكيت باتخاذهم العجل فى قوله تعالى: وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ . (البقرة : ٥١) وأعيد هنا بعبارة أخرى فى سياق آخر، وهو أن الآيات البينات الدالة على النبوة والوحدانية. مثل الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفلق البحر وتظليلهم بالغمام

والمن والسلوى والحجر. هذه الآيات لم تزدهم إلا إيغالا فى الشرك وانهماكًا فى الوثنية. ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ: أى ثم اتخذتم العجل من بعد مجئ موسى بالبينات على رسالته. وصحة ما دعاكم إليه من توحيد الله بالعبادة.

والتعبير بقوله: مِنْ بَعْدِهِ . يفيد أنه لم يكن لهم عذر فى ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة قامت الحجة عليهم.

والآية الكريمة فيها إبطال دعواهم بما أنزل عليهم لأنهم لو كانوا مؤمنين حقًا بنبيهم الذى جاء بالبينات لما تركو ما أمرهم به وهو عبادة الله، وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

وقال ابن كثير:

مِنْ بَعْدِهِ . أى من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ. (الأعراف: ١٤٨)

٩٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا .واذكروا يا بنى إسرائيل، إذ أخذنا الميثاق المؤكد عليكم بأن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، وأن تعملوا بشرعه، وكان أخذ الميثاق عليكم فى موقف كله رهبة وخشوع وبيان لقدرة الله على عقاب من لم يمتثل إذ رفع فوقكم جبل الطور كأنه ظلة تظللكم، وظننتم أنه سيقع عليكم، وطلب منكم حينئذ أن تأخذوا ما آتاكم من الشرع بقوة: بأن تسمعوا سماع تدبر، وفهم وقبول وتعملوا بما جاءكم فيه من التكاليف بحزم وعزم، ولكنكم لم تلبثوا أن نقضتم العهد بمجرد أن زال عنكم هذا الموقف.

ومعنى قوله تعالى: خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا . أى قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به من التوراة بجد واجتهاد واسمعوا ما تؤمرون به سماع طاعة وتفهم، ثم حكى سبحانه جوابهم الذى يدل على عنادهم فقال: قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .

أى كانت حالهم فى المخالفة مثل حال من قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك. وقال الزمخشرى فى الكشاف:

(فإن قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت: طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة) [٢٢٢].

وقد اختلف المفسرون: هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقا أو أنهم فعلوا فعلا مقام القول فيكون مجازًا؟

قال الفخر الرازى: (الأكثرون من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة)

وقال أبو مسلم: وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان فعبر عن ذلك بالقول ولم يقولوه، كقوله تعالى: فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . (فصلت: ١١) قال: والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز [٢٢٣].

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . واختلط حب عبادة العجل بقلوبهم، تقليدًا لسادتهم من الفراعنة: الذين كانوا يعبدونه ويقدسونه، ولم ينتفعوا بتحرير الله لهم من ذل العبودية والقتل، حيث شق البحر لهم ونجاهم.

ولهذا انتهزوا فرصة ذهاب موسى - عليه السلام - لتلقّى ألواح التوراة: فأرضوا حبهم لمعبودهم القديم، وعبدوا صنما على شكل العجل، صنعه لهم موسى السامرى من حليهم (٢٢٤).

وفى تفسير ابن كثير: وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ.

قال قتادة: أشربوا حبه حتى خلص إلى قلوبهم، وروى أحمد عن أبى الدرداء عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: « حبك الشىء يعمى ويصم » ورواه أبو داود (٢٢٥).

قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . قل لهم يا محمد: بئس الذى يأمركم به إيمانكم المزعوم بالتوراة من الأعمال التى تقترفونها، كعبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق، وقولكم : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا . وإضافة الإيمان إليهم فى قولهم: إِيمَانُكُمْ . للإيذان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى: إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . فإنه قدح فى دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لهذه الدعوى، وتقرير الإبطال: إن كنتم- فيما اقترفتموه من الشرك والمعاصى - مؤمنين بها، عاملين بما فيها كما ادعيتم، فبئسما يأمركم به إيمانكم المزعوم بها، إذ إن الإيمان الصادق بها لا يأمركم بما اقترفتموه من الشرك والمعاصى، فليس فيها إباحة شىء من ذلك، وهذا برهان على عدم إيمانكم بها.

قال الطبرى: قوله: إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم، إنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله وتأمر بخلافه، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان يأمرهم بذلك، فبئس الأمر تأمر به، إنما ذلك نفى من الله تعالى عن التوراة أن تكون تأمر بشىء مما يكرهه الله من أفعالهم، وأن يكون التصديق بها يدل على شىء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذى يأمر بذلك أهواؤهم، والذى يحملهم عليه البغى والعدوان (٢٢٦).

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ألوانا من الإعجاز البيانى والنفسى تنطوى عليها الآيات السابقة فى حجاج اليهود.

ففى تفسير الآية (٩١) من سورة البقرة: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ . . . .

قال الأستاذ دراز: هذه الآية قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلى:

١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين.

٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه. وفى ختام الآية ٩١: قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

يقول الأستاذ دراز:

لقد استوى القرآن إلى الرد على المقصد الأصلى الذى تبجحوا بإعلانه، فأوسعهم تكذيبًا وتفنيدًا، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم، قد أشربوه فى قلوبهم، ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضًا مزمنا ، وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة التى لا سبيل إلى إنكارها، فى جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه وتمردهم على أوامره.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . تأمل كيف أن هذا انتقال كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين كتابهم نفسه، وهل الذى يكذب من يصدقك يبقى مصدقًا لك؟

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول فى الأمر: إن هذا (ظلم) وفى الثانية (بئسما) صنعتم، أذلك ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجههما، ولكن أين حدة الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام.

بل أين الإقذاع والتشنيع؟ وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

لله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر) (٢٢٧).



حرصهم على الحياة

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

المفردات:

خالصة : سالمة لكم مختصة بكم، لا يشارككم فيها أحد من الناس.

التمنى : هو الرغبة القوية فى الشىء.

يعمر : يطول عمره.

بمزحزحه : بمبعده من العذاب.

البصير : العالم بكنه الشىء الخبير به.

المعنى الإجمالى:

قل يا محمد لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا: إن كانت الجنة مختصة بكم، وسالمة لكم دون غيركم وليس لأحد سواكم حق فيها، فليكن الموت محببًا إليكم ولتتمنوه حتى لا يبطئ عنكم هذا النعيم الذى تدعونه.

ولكنهم فى الواقع لا يرغبون فى الموت أبدًا لما اقترفوه من ظلم لا يخفى أمره على الله، والله عليم بظلمهم ويكذبهم فيما يدعون.

بل إنك لتجدنهم أحرص الناس جميعًا على حياتهم على أى شكل عزيزة أو ذليلة، وحرصهم أكثر من حرص المشركين الذين لا يؤمنون ببعث ولا جنة، ولذلك يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، ولن يبعد عنه تعميره مهما طال ما ينتظر من عذاب الله، والله عليم بأعمالهم محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

التفسير:

٩٤ - قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . لقد ادعى اليهود دعاوى كثيرة، ادعوا الإيمان بما أنزل عليهم، فبينت الآيات السابقة كذب ادعائهم، بعبادتهم العجل، واقترافهم كبائر الإثم.

وادعوا: أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا، فهى خالصة لهم دون غيرهم، فأبطل الله دعواهم بهذه الآية.

والمعنى: قل لهم يا محمد: إن كانت لكم جنة الآخرة عند الله، وفى حكمه وكتابه خالصة لكم، وخاصة بكم من دون الناس جميعًا كما زعمتم: إذ قلتم لن يدخلها إلا من كان هودًا، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص لكم، والخاص بكم، إن كنتم صادقين فى دعواكم، فإن النفس تستعجل خيرها.

قال الإمام الرازى: وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلتها كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - ومنازعته معهم، بالجدال والقتال، ومن كان فى النعم القليلة المنغصة، ثم تيقن أنه بعد الموت لابد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لابد أن يكون راغبًا فى الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة، ولا سبيل إليها إلا الموت، وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب، وجب أن يكون هذا الإنسان راضيًا بالموت متمنيًا له، فثبت أن الدار الآخرة، لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت.

ثم إن الله تعالى أخبر أنهم ما تمنوا، بل لن يتمنوا أبدًا، وحينئذ يلزم قطعًا بطلان ادعائهم فى قولهم: إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس [٢٢٨].

٩٥ - **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**. أى: لا يتمنى اليهود الموت أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله عز وجل لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم بل هو سيسجلها عليهم ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه.

واختار ابن كثير فى تفسيره أن المراد من الآيتين الدعاء بالموت على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة.

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما: أن ذلك يكون عن طريقة المباهلة بأن يحضروا مع المؤمنين فى صعيد واحد ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منها.

وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه» [٢٢٩]. وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وروى ابن جرير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا ومالا » رواه الإمام أحمد [٢٣٠].

وعلق ابن كثير على الكلام السابق بقوله:

وهذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب: منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، نقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس، نظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة: **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)** . (الجمعة ٦-٨)

فهم عليهم لعائن الله - لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جاذمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال تعالى: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ . (آل عمران : ٦١)

فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا إلى السلم وبذل الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أمينا، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين: قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا . أى من كان فى الضلالة منا أو منكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه [٢٣١].

وقد انتصر ابن كثير لرأى ابن عباس وبين أنه هو المتعين فى تفسير الآية. وهاجم رأى جمهور المفسرين الذى قالوا معنى. إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ . أى فى دعواكم فتمنوا الموت الآن، لم يتعرض هؤلاء للمباهلة.

وقد انتصر بعض المفسرين المحدثين لرأى الجمهور ورجحه لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذى نطقت به الآية وأقرب أيضا إلى معناها [٢٣٢].

وأرى أن كلا التفسيرين محتملان فى فهم الآية ولا حاجة بنا إلى إبطال أحدهما ولا يمنع أن يفهم منها المعنى الآخر، ومن أسرار الإعجاز القرآنى، أن الآية تفيد معنى وتشير إلى معنى وتستتبع معنى.

وهى فى ذاتها قطعة من الأدب الرفيع على السبك المحكم أو الرد المفحم أو الحجة البالغة.

ولعل من المعانى التى تشير إليها الآية أن المؤمن لا يهاب الموت ولا يرهب الردى ثقة منه بأن أجله محدود، ورزقه مقسوم، والموت رحلة إلى الآخرة، يشاهد فيها المؤمن ما أعد للأبرار، ويقدم على العزيز الغفار، مطمئنًا راضيًا مرضيًا.

وقد روى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تمنى الموت عند القتال، معبرين بألسنتهم عما يجول فى صدورهم، من صدق الإيمان بما أعد للمؤمنين من الدار الآخرة، فقد جاء فى الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

وأن عمار بن ياسر قال فى حرب صفين:

غدا نلقى الأحبه ... محمدًا وصحبه

ويقول الشاعر:

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه ... حريصًا عليها مستهامًا بها صبا

فحب الجبان النفس أورده التقى ... وحب الشجاع النفس أورده الحربا

٩٦ - وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ . أى انهم يحبون الإخلاد إلى الأرض، ويعملون كل ما يوصلهم إلى البقاء فيها. فلا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون، وتلك سيرتهم فى كل زمان، وإن كان الكلام مع من كان فى عصر التنزيل.

وهكذا نجدالقرآن الكريم يرسل من الحجاج، فيشاغبون ويعاندون، اعتزازا بشعبهم، واعتزازا بكتابهم.

وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . أى وهم أشد حرصًا على الحياة من الذين أشركوا، ولم يؤمنوا بالله، ولا باليوم الآخر، وفى هذا توبيخ وإيلام عظيم لهم، إذ المشركون لا يؤمنون ببعث، ولا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، فحرصهم عليها ليس بالغريب، أما من يؤمن بكتاب ويقر بالجزاء فمن حقه ألا يكون شديد الحرص عليها.

وقوله : وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا . معطوف على ما قبله بحسب المعنى، كأنه قيل: أحرص من الناس ومن الذين أشركوا، فقوله : أَحْرَصَ النَّاسِ فيه كلمة (من) مقدرة بعد أحرص.

قال صاحب الكشاف: وفيه توبيخ عظيم، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بعاقبة، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليها فى الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء، كان حقيقًا بأعظم التوبيخ، فإن قلت: لم زاد حرصهم على حرص المشركين؟

قلت: إنهم علموا انهم صائرون إلى النار لا محالة، والمشركون لا يعلمون ذلك، وقيل: أراد بالذين أشركوا المجوس لأنهم كانوا يقولون لملوكهم: عش ألف نيروز، وألف مهرجان (٢٣٣).

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ . أى بلغ من شدة غلوهم فى الحرص على الحياة، أن الواحد منهم يتمنى أن يعيش السنين الكثيرة، ولو تجاوزت الحد الذى يبلغه الإنسان فى العادة، فكلمة (ألف سنة) كناية عن المدة الطويلة التى يود أن يحياها، وليس المراد خصوص العدد، لأن العرب تذكر الألف وتريد الكثرة.

وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ . وما ذلك التعمير لو تم، بنافعه ولا مبعده من عذاب الله المحتوم، لأنه لابد من الموت والعرض على الله، ليجازى على ما قدم فى دنياه.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . أى والله عالم بأعمالهم، محيط بما يخفون وما يعلنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود زعمهم الباطل بأن الجنة خالصة لهم، فأبطلت حجتهم وكشفت مزاعمهم، وأخرست ألسنتهم، وبينت أن الجنة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس، ولذلك حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت، بسبب ما ارتكبوا من سيئات وما اقترفوا من آثام(٢٣٤).

* * *

عداوة جبـــريل

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات:

العدو : ضد الصديق، يطلق على الواحد والمثنى والجمع المذكر والمؤنث.

جبريل : أمين الوحى بين الله تعالى ورسله، وهو روح القدس.

مصدقا لما بين يديه : أى مؤيدًا ما تقدمه من الكتب السماوية التى نزلت على من سبق نبينا من الرسل.

آيات : المراد بها آيات القرآن.

بينات : واضحة الدلالة على معانيها.

الفاسقون : الخارجون عن الحق إلى الباطل والفساد.

نبذه : طرحه وألقاه، من النبذ، وهو إلقاء الشىء وطرحه لعدم الاعتداد به.

المعنى الإجمالى:

ذكر الله فى آيات سابقة معاذير لليهود اعتذروا بها عن عدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم كقولهم إنهم مؤمنون بكتاب من ربهم وقولهم إنهم ناجون حتما فى الآخرة.

وفى هذه الآيات ذكر تعلة أخرى هى أعجب من كل ما تقدم فندها كما فند ما قبلها، تلك هى قولهم إن جبريل الذى ينزل على محمد الوحى عدوهم فلا يؤمنون بما يجئ به منه.

قد بين القرآن أن جبريل لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه إنما بأمر الله مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية، مصدقًا لكتابهم نفسه، وليكون هداية وبشارة للمؤمنين.

فمن كان عدوا لجبريل أو ميكائيل أو لأى ملك أو رسول من ملائكة الله ورسله الذين لا يفعلون ولا يبلغون إلا ما يأمرهم به الله، فإنه يكون عدوا لله وكافرًا به. والله عدو للكافرين. وما ينزل جبريل على النبى إلا بآيات بينات لا يسع طالب الحق إلا الإيمان بها، وما يكفر بمثلها إلا المعاندون الخارجون من سنة الفطرة . وكما

تذبذبوا فى العقيدة والإيمان تذبذبوا كذلك فيما يبرمونه من عهود. فكانوا كلما عاهدوا المسلمين وغيرهم عهدا نبذه فريق منهم لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد ولا بقداسة ميثاق.

التفسير:

٩٧ - قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ.

قال الإمام ابن جرير الطبرى: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعًا، على أن هذه الآية نزلت جوابًا لليهود من بنى إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وميكائيل ولى لهم) [٢٣٥].

ومن قبائح اليهود قولهم فى جبريل - عليه السلام - هو عدونا، وأرادوا من هذا القول: انهم لا يؤمنون بوحى يجئ به عدوهم فهم لا يؤمنون بالنبى صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريل هوالذى ينزل عليه بالوحى.

فهم يثبتون أن جبريل ملك مرسل من عند الله ومع ذلك يبغضونه وهذا أحط درجات الانحطاط فى العقل والعقيدة.

قال ابن كثير فى معنى الآية: أى من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك، فهو رسول من رسل الله، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل.

وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه[٢٣٦]، كما قال : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . (مريم:٦٤)

وقال تعالى: وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. (الشعراء:١٩٢-١٩٤).

وقد نزل القرآن على قلب النبى الأمين مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية وهدى لقلوب المؤمنين وبشارة لهم بالجنة.

وقد ورد فى البخارى وفى مسند الإمام أحمد وفى مسند الترمذى والنسائى روايات متعددة تفيد أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه بالوحى؟ فقال: جبريل، فقالوا ذاك عدونا، عادانا مرارا [٢٣٧].

وقيل: دخل عمر رضى الله تعالى عنه مدارس اليهود يومًا فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا يطلع محمدًا على أمورنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلام. فقال: وما منزلتهما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة. فقال: لئن كانا كما تقولون فليسا بعدوين ولأنتم أكفر من الحمير، ومن كان عدوًّا لأحدهما فهو عدوا لله. ثم رجع عمر وتوجه نحو النبى صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية: قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ . الآيات[٢٣٨].

٩٨ - مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ . أى من كان عدوا لله بمخالفته أمره عنادًا، والخروج عن طاعته مكابرة، وعدوا لملائكته برفضه الحق الذى جاءوا به من عنده تعالى لرسله، وعدوا لرسله بتكذيبهم وعدوا لجبريل وميكائيل خاصة، من كان عدوا لهؤلاء، وعداوتهم كفر، عاداه الله فإن الله عدو للكافرين، ومن عاداه باء بالعذاب المهين.

قال ابن كثير:

(يقول تعالى: من عادانى وملائكتى ورسلى - (ورسله) ليشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ. وجبريل وميكال- وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكال فى اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليهم فأعلمهم أنه من عادى واحدًا منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضًا، لأنه أيضًا ينزل على الأنبياء بعض الأحيان كما قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر وهو وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالصور للنفخ بالبعث يوم القيامة) (٢٣٩) ولهذا جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون - اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) (٢٤٠). وميكال هو ميكائيل، وجبريل هو جبرائيل.

قال البيضاوى (وفى جبريل ثمان لغات قرئ بهن أربع فى المشهور وأربع فى الشواذ) (٢٤١).

عن ابن عباس قال: إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن. قيل جبر: عبد، إيل: الله.

٩٩ - وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ.

لقد أنزلنا إليك القرآن حججًا على نبوتك وعلامات واضحات عليها.

قال ابن كثير:

(وتلك الآيات هى ما حكاه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فأطلع الله عليها نبيه محمدًا - صلى الله عليه وسلم - فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات) (٢٤٢).

قال تعالى : إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ. أى ولا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون أى المتمردون فى الكفر الخارجون عن حدود الإيمان.

قال الحسن: إذا استعمل الفسق فى نوع من المعاصى، وقع على أعظم أفراده من كفر أو غيره، ومن أشد هؤلاء الفاسقين فسقًا: اليهود إذ إنهم كفروا بالآيات البينات مع تأكدهم من صدق من جاء بها عنادًا لمن ظهر الحق على يديه وحسدًا له، فإنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

١٠٠ - أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ . والاستفهام فى. أَوَ كُلَّمَا . للإنكار والتوبيخ والتعجب من شأنهم. والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام والتقدير: أكفروا بهذه الآيات وكلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم .كُلَّمَا . لإفادة تكرارهم لنبذ العهود.

قال الزمخشرى: واليهود موسومون بالغدر ونقض العهد وكم أخذ الله الميثاق منهم ومن آبائهم فنقضوا، وكم عاهدوا رسول الله فلم يفوا.

قال تعالى: الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ. (الأنفال : ٥٦)



السحـــــر

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

المفردات:

تتلوا　　: تخبر وتحدث أو تقول.

على ملك سليمان : على عهد ملكه وفى زمانه.

السحر : إخراج الباطل فى صورة الحق، وهو فى الأصل مصدر سحر يسحر بفتح الحاء فيهما، والسحر لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه، وسحره: خدعه، وجاء فى كلامهم: عين ساحرة وعيون سواحر وفى الحديث « إن من البيان لسحرا » (٢٤٣).

والمراد هنا : أمر غريب يشبه الخارق المعجز وليس بالخارق إذ يجرى فيه التعلم، كالذى حصل من سحرة فرعون. حيث أظهروا لموسى حبالهم وعصيانهم أنها تسعى.

ببابل : بلدة قديمة، كانت بالعراق ينسب إليها السحر.

هاروت وماروت : اسمان للملكين اللذين أنزل عليهما علم السحر.

فتنة : ابتلاء واختبار.

اشتـراه : استبدل ما تتلوا الشياطين بكتاب الله.

خـلاق : نصيب فى الخير.

لمثوبة : لأجر وثواب.

المعنى الإجمالى:

بيَّن الله فى هذه الآيات علة ما يصدر عن اليهود من جحود وعناد، ومعاداة للنبى صلى الله عليه وسلم.

فقد جاءهم محمد برسالة سماوية تصدق ما معهم من التوراة وتطابق أوصاف ما فى أسفارهم.

ولكن فريقًا منهم نبذ ما ذكر فى التوراة عن رسالة محمد كأنه لم يرد فيها ولم يعلموا شيئًا عنه.

ولقد صدقوا ما تتقوله شياطينهم وفجرتهم على ملك سليمان، إذ زعموا أن سليمان لم يكن نبيّا ولا رسولا ينزل عليه الوحى من الله بل كان مجرد ساحر يستمد العون من سحره، وأن سحره هذا هو الذى وطد له الملك وجعله يسيطر على الجن والطير والرياح فنسبوا ذلك الكفر لسليمان وما كفر سليمان ولكن هؤلاء الشياطين الفجرة هم الذين كفروا، إذ تقولوا عليه هذه الأقاويل، وأخذوا يعلمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت مع أن هذين الملكين ما كانا يعلمان أحدًا حتى يقولا له إنما نعلمك ما يؤدى إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذره، وتوق العمل به، ولكن الناس لم ينتصحوا بهذه النصيحة، فاستخدموا مما تعلموه منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه. نعم كفر هؤلاء الشياطين الفجرة إذ تقولوا هذه الأقاويل من أقاويلهم وأساطيرهم ذريعة لتعليم اليهود السحر، وما هم بضارين بسحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذى يأذن بالضرر إن شاء، وإن ما يؤخذ عنهم من سحر ليضر من تعلمه فى دينه ودنياه ولا يفيده شيئًا، وهم أنفسهم يعلمون حق العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ فى نعيم الآخرة، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم.

ولو أنهم آمنوا الإيمان الحق وخافوا مقام ربهم لأثابهم الله ثوابًا حسنا، ولكان ذلك الثواب خيرًا لهم من كل ما يتوقعون من المنافع لو كانوا يميزون النافع من الضار.

التفسير:

١٠١ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بأنه جاءهم من عند الله فيه تعظيم له، فإن عظمة المرسل تقتضى عظمة رسوله، وفيه مع ذلك مبالغة فى استنكار كفرهم.

أى ولما جاءهم رسول عظيم من عند الله مصدق لما معهم من التوراة من حيث إنه جاء على الوصف الذى وصفته التوراة لخاتم الرسل. كما أن كتابه الذى جاء به موافق لما فيها من قواعد التوحيد وأصول الدين والأخلاق وأخبار الأمم.

نبذ فريق من اليهود كتاب الله وهو التوراة التى بشرت بالنبى وأهملوها إهمالا تاما كأنهم لايعلمون أنها من عند الله أو أن محمدًا رسول الله.

والواقع أنهم يعلمون ذلك علما يقينا ولكنهم نبذوه مكابرة وعنادًا وجريا على سنتهم فى نبذ العهود، فإنه قد أخذ عليهم فى التوراة أنه إذا جاءهم هذا الرسول المنعوت، يؤمنون به وينصرونه، فنقضوا هذا العهد بكفرهم به.

وقوله تعالى: وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . كناية عن إعراضهم الشديد عنه وتوليهم عن تعاليمه.

جاء فى تفسير المنار:

ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم، أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به فى جملته وتفصيله، وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ويبين صفاته، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه، فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشىء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره وترك الجزء منه كتركه كله، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحى من النفس ويجرى على ترك الباقى [٢٤٤].

هل السحر حقيقة أم خداع؟

السحر نوع من الابتلاء والاختبار، أو نوع من البلاء الذى يتعرض له الناس فى هذه الدنيا.

«والسحر ثابت بالحس والمشاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسير والحديث والفقهاء، والسحر يؤثر مرضًا وثقلا وعقدا وحبّا وبغضا ونزيفا وغير ذلك من الآثار الموجودة والتى تعرفها عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقًا بما أصيب به» [٢٤٥].

رأى الإمام محمد عبده فى السحر:

يذهب الأستاذ الإمام إلى أن السحر تخييل للأعين وخداع للناظرين، ونستطيع أن نوجز آراءه فى السحر فيما يلى:

١ - السحر ليس جزءا من العقيدة الدينية بل هو من الأمور العادية والعلوم الإنسانية، متروك إلى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقه.

٢ - جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين:

(أ) إما حيلة وشعوذة.

(ب) وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون فيسمون العمل بها سحرًا لخفاء سببه ولطف مأخذه، ويمكن أن يعد منه تأثير نفس فى نفس أخرى.

٣ - السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة، ولذلك قال سبحانه : يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ فسحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى.

٤ - اعتاد من يتخذ السحر وسيلة أن يستعين بأسماء الجان والشياطين فيعتقد الدهماء أنهم يستجيبون له ويلقى ذلك فى روعهم ، وهذا الوهم يصنع صنع السحر ولا يستطيع الساحر أن يؤثر إلا فى شخص عزيمته هباء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه، فينتهز ذلك الساحر ليوهمه بما يشاء [٢٤٦].

مذهب الأشعرية:

مذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرًا حقيقيًا وليس كله حيلا ومنه أنه أثر فى جسم النبى صلى الله عليه وسلم وخياله دون عقله وروحه فكان يخيل إليه أنه آتى نساءه ولم يكن آتاهن ولم يتجاوز هذا الحد [٢٤٧].

تأمل فى الموضوع:

والمتأمل فى موضوع السحر يرى أن بعضه خداع وخفة حركة وبراعة وحيلة وذكاء وتفرس.

وبعضه حقيقة نسلم بها كنوع من البلاء الذى يصيب الناس فى هذه الدنيا. قال تعالى : وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.

وفى التراث الإسلامى والهدى النبوى ما يفيد أن هناك عدة أشياء تحمى الإنسان من السحر والحسد والشياطين منها ما يأتى:

١ - قراءة آية الكرسى.

٢ - قراءة. قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . والمعوذتين.

٣ - قراءة خواتيم سورة البقرة من قوله تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ... .

٤ - إخراج صدقة.

٥ - قراءة: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير) عشر مرات بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب.

٦ - قراءة: (باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وفى الأثر: من أعجبه شىء من أهل أو مال أو ولد فقال باسم الله لا قوة إلا بالله لم ير فيه مكروها.

٧ - الاعتقاد الجازم و اليقين الصادق بأن الله هو النافع وهو الضار وهو المانع وهو الكافى وأن أحدًا لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله. وهذا العنصر الأخير هو أهم شىء فى الموضوع وهو الصخرة العاتية التى تتكسر عليها آثار كل حسد أو سحر أو شر.

آية السحـــر

١٠٢ - وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.

هذه الآية معطوفة على الآية السابقة. التى أفادت أن فريقًا من اليهود نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه ثم عطف هنا على هذه الجريمة - وهى نبذهم لكتاب الله - جريمة أخرى هى اتباعهم الشياطين بمزاولة السحر بدل كتاب الله.

والمعنى أن اليهود لما جاءهم الرسول بالقرآن نبذوه أو نبذوا التوراة التى بشرت به، واشتغلوا بالسحر. والمراد مما تتلوه الشياطين: أى المتمردون من الإنس والجن. وقد كانت الشياطين فى عهد سليمان تلقى كهان اليهود وتتلو عليهم قواعد السحر وتخبرهم كذبا: أن ملك سليمان وسلطانه على الإنس والجن، والطير والريح، لم يقم إلا على تلك القواعد، فكانوا يدونونها عن الجن فى كتب لديهم: توارثها الخلف عن السلف حتى وصلت إلى اليهود فى المدينة فكانوا يشتغلون بها قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم، ولما بعث رفضوا كتاب الله وفضلوا عليه الاستمرار فى السحر.

وقد زعموا أن سليمان جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه، ثم استخرجها، وهذا من مفتريات أهل الأهواء نسبوها إليه كذبًا وبهتانًا.

قال الزمخشرى وقوله تعالى: عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ. أى على عهد ملكه وفى زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها إلى الكهنة، وقد دوَّنوها فى كتاب يقرءونها ويعلمونها للناس، وفشا ذلك فى زمان سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم الغيب، وكانوا يقولون: ما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسحر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره [٢٤٨].

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ . تنزيه لسيلمان عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسبونه إليه زورًا وبهتانًا [٢٤٩].

وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان، وأنه ارتد فى آخر عمره وعبد الأصنام وبنى لها المعابد، وكانوا عندما يذكر النبى صلى الله عليه وسلم سليمان بين الأنبياء يقولون: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحرًا يركب الريح.

وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا . أى ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إلى سليمان ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا.

يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . أى أن الشياطين يعلمون الناس السحر إغواء وإضلالا. والجملة حال من الضمير، والمراد من السحر ما يستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه فى الشرارة وخبث النفس فإن التناسب شرط فى التضامن والتعاون.

وبهذا تميز الساحر عن النبى والولى.

وأما ما يتعجب فيه كما يفعله أصحاب الحيل بمعونة الآلات أو الأدوية، أو يصنعه صاحب خفة اليد فغير مذموم وتسميته سحرًا من التجوز أو لما فيه من الدقة لأنه فى الأصل لما خفى سببه (٢٥٠).

وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ . أى اتبع اليهود ما كانت تقرؤه الشياطين على الكهنة من أبواب السحر من عهد سليمان.

واتبعوا أيضا ما أنزل على الملكين هاروت وماروت ببابل.

(وهاروت وماروت ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزًا بينه وبين المعجزة. وما روى أنهما مثلا بشرين وركب فيهما الشهوة فتعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المعاصى والشرك ثم صعدت إلى السماء بما تعلمت منهما فمحكى عن اليهود ولعله من رموز الأوائل وحله لا يخفى على ذوى البصائر. وقيل رجلان سميا ملكين باعتبار صلاحهما) (٢٥١).

والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين للملائكة، وإلقاؤه فى قلبيهما وتعليمهما إياه.

فكانا يعلمان الناس السحر لكى يتخلصوا بتعلمه من سيطرة السحرة من الصابئة ويتقوا شرورهم وكانا يمزجان التعليم بالتحذير: وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . أى ما يعلمان أحدًا حتى ينصحاه ويقولا له إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل به كفر ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان فلا تكفر، باعتقاد جوازه والعمل به.

أو يقولا: إنما نحن مفتونان فلا تكن مثلنا (٢٥٢).

وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هذه الآية:

أراد الله أن يبتلى به الناس فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحدًا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر.

وأما (الفتنة) فهى: المحنة والاختبار (٢٥٣).

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ . أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة، ما أنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف، واختص الإفساد بين الزوجين بالذكر لأنه من الصور التى تظهر فيها مفسدة للسحر بأشد ما تكون، فلهذا آثر إبرازها، ليعلم الناس منها مدى ما يصل إليه السحر من الإضرار بالمجتمع، فإن إفساد الأسرة إفساد للمجتمع، لما فيه من تشريد الأولاد الذين هم أساسه.

روى مسلم عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فى الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة، يجئ أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا، ويجئ أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال: فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت » (٢٥٤).

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر، ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو بغض أو شك أو اتهام أو نحو ذلك.

والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان (٢٥٥).

وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ . أى ما يضر السحرة بهذا أحدا كائنا من كان إلا بعلم الله وإرادته، فهم إذن لا يستطيعون أن يحدثوا بسحرهم ضررا دون إرادة الله.

قال سفيان الثورى: إلا بقضاء الله، قال محمد بن إسحاق: إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد.

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ . من قبل أنه سبب فى إضرار الناس، هذا مما يعاقب الله عليه من عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ولا نفع لهم فيه، فإنا نرى منتحلى هذه المهن من أفقر الناس وأحقرهم، وذلك حالهم فى الدنيا، فما بالك بهم فى الآخرة يوم يجزى كل عامل بما عمل.

وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ . ولقد علم هؤلاء اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا السحر أن من استبدل السحر بكتاب الله وآثره على شرعه سبحانه، ليس له أى حظ من الجنة ولا أى نصيب من الخير يوم القيامة؛ لأنه لم يكن له إيمان ولا عمل صالح يكافأ عليه. الضمير فى. عَلِمُوا . يعود إلى أولئك اليهود الذين تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

وهى تفيد أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره، إنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متعمدين وعالمين بعاقبته السيئة.

وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . شَرَوْا : أى باعوا، وهى من الأضداد فتأتى بمعنى البيع والشراء.

بيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة ونعيمها.

المعنى: ولبئس هذا الذى باعوا به حظ أنفسهم من الخير، هو تعلم السحر والعمل به، لو كان عندهم علم وعقل لأدركوا أن هذا السحر ضار مفسد للنفس والعقل والناس، ولامتنعوا عن تعلمه والعمل به. قال ابن كثير: لبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسل لو كان فيهم علم بما وعظوا.

١٠٣ - وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . أى لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للأوهام والأباطيل، آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) أو بالتوراة إيمانًا حقًا، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر، كانت لهم مثوبة من عند الله، هى خير لهم من السحر، ولو كانوا من أولى العلم الذين

ينتفعون بما يعلمون، لم يفعلوا ذلك، ولكنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة فكفروا وعصوا، فكانوا من الخاسرين .. وقريب منه ما ورد فى قصة قارون من قوله تعالى:

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ. (القصص : ٨٠)

الترهيب من السحر:

فى الآية السابقة دليل على أن من يستخدم السحر ويؤمن به يكون من الكافرين، لأن قوله تعالى : وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ. حجة على أن السحر: ضرب من ضروب الكفر.

وقد أطلق القول بكفر من يزاوله العلامة التفتازانى.

قال ابن كثير: (وقد يستدل بقوله (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا) من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف) (٢٥٦).

لكن الشيخ أبا منصور ذهب إلى أن إطلاق القول بأن السحر كفر خطأ وأنه يجب التفصيل فيه، فإن كان فيه رد ما لزم من شروط الإيمان فهو كفر وإلا فلا.

وعلى هذا فالمراد من السحر الذى هو كفر ما كان بالتقرب إلى الشيطان بالسجود له أو لصنم أو غيره، أو بالرقى بعبارات فيها شرك بالله تعالى، أو نحو ذلك مما ينافى أصول العقيدة الإسلامية، كاعتقاد الساحر أن ما يستعين به فى سحر مثل الجن والنجوم - لها قدرة على النفع والضر) (٢٥٧).

وعقاب السحر الذى هو كفر: قتل الذكور وحبس الإناث وضربهن ما لم تقع منهم توبة.

وأما ما ليس بكفر، وفيه إهلاك نفس، ففيه حكم قطاع الطريق ويستوى فيه الذكور والإناث، وتقبل توبة صاحبه إذا تاب، هذا رأى بعض الفقهاء.

والمشهور عن أبى حنيفة - رضى الله عنه - أن الساحر يقتل مطلقًا إذا علم أنه ساحر، سواء أكان ذكرًا أم أنثى وتقبل توبته إذا تاب.

ومذهب مالك - رضى الله عنه - كما نقله القرطبى: أن المسلم إذا سحر بنفسه بكلام يكون كفرًا فإنه يقتل، ولا يستتاب، ولا تقبل توبته.

(وقد روى الشافعى وأحمد بن حنبل عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضًا (٢٥٨) . وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت (٢٥٩)، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - قتل الساحر) (٢٦٠).

طريقة فك السحر:

حكى القرطبى عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر (٢٦١) فتدق بين حجرين، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد

للرجل الذى يؤخذ عن امرأته، قال ابن كثير: أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى إذهاب ذلك وهما المعوذتان.

وفى الحديث: « لم يتعوذ بمثلهما » وكذلك قراءة آية الكرسى فإنها مطردة للشيطان (٢٦٢).

حديث شريف:

قال صلى الله عليه وسلم : « اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والسحر، وأكل مال اليتيم (٢٦٣).



أدب الخطاب

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥) ﴾

المفردات:

راعنا : أى انتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك، وأصله من المراعاة، فى الرعى. وهو الحفظ والتدبير وتدارك المصالح.

انظرنا : انتظرنا وتأن بنا وأمهلنا.

المودة : محبة الشىء وتمنى حصوله.

تمهيد:

هذا خطاب وجه إلى المؤمنين فى شأن له اتصال باليهود وبه انتقل من الأحاديث الخاصة بهم إلى حديث مشترك بينهم وبين المؤمنين والنصارى.

١٠٤ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كان المسلمون إذا ألقى الرسول عليهم شيئا من العلم يقولون راعنا يا رسول الله يريدون منها: انتظرنا وتأن بنا حتى نفهم كلامك ونحفظه.

فتلقف اليهود هذه الكلمة لموافقتها كلمة سيئة عندهم هى كلمة (راعينو) العبرية التى معناها شرير.

وكان سعد بن عبادة يعرف لغتهم فلما سمعهم يقولون ذلك قال لهم: عليكم لعنة الله لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى صلى الله عليه وسلم لأضربن عنقه، فقالوا: أوَلستم تقولونها.

فأنزل الله الآية نهيًا للمؤمنين عن مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه اللفظة: قطعًا لألسنة اليهود، حتى لا يتخذونها ذريعة لسب النبى صلى الله عليه وسلم، وإيذائه والاستهزاء به.

وأمرهم أن يقولوا بدلا منها .انظُرْنَا . أى انتظرنا وتأن بنا حتى نحفظ ونفهم ما تقول، فإنها تؤدى المعنى الذى يقصدونه بقولهم . رَاعِنَا . ولا يمكن لليهود أن يحرفوها إلى سبه - عليه السلام - والاستهزاء به.

وَاسْمَعُوا . وأحسنوا الاستماع فى قبول وامتثال مع وعى قلبى، حتى تحفظوا ما يلقيه عليكم ولا يفوتكم منه شىء.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وأن الله ليدخر عذابًا اليمًا يوم القيامة لهؤلاء المستهزئين بالرسول.

وقال ابن كثير: نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون (راعنا) ويورون بالرعونة كما قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً • (النساء : ٤٦)

قال ابن جرير الطبرى: والصواب من القول فى ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه صلى الله عليه وسلم (٢٦٤).

١٠٥ - مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . لا يحب الكافرون من اليهود والنصارى ولا المشركون: أن ينزل الله عليكم- أيها المؤمنون - شيئا من الخير وذلك لعداوتهم وحسدهم لكم، فهم لا يحبون لكم الخير.

والخير: النعمة والفضل، والمراد به فى الآية الكريمة النبوة وما تبعها من الوحى الصادق والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدهم وكراهتهم أن تكون النبوة فى رجل عربى ليس منهم.

وكذلك المشركون: كانوا يرون فى تتابع نزول القرآن، قوة للإسلام وتثبيتا لدعائمه وأركانه، وهم يكرهون ذلك ويودون أن تدور الدائرة على المسلمين. ويستنكرون أن يكون نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم. وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ * أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . (الزخرف: ٣١-٣٢)

والنبوة فضل الله تعالى يهبها من يشاء من عباده ولا ينبغى لإنسان أن يعترض على فضله سبحانه.

قال صاحب الجوهرة:

ولم تكن نبـــوة مكتـــســـبـــه ولو رقى فى الخـــيـــر أعلى عـــقـــبـــه

بل ذاك فـــضل الله يؤتيـــه لمن يـشـــاء جل الله واهب المنن

فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه يصطفى للنبوة من يشاء من عباده. اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ. (الحج : ٧٥)

وبذلك تكون الآية قد نبهت إلى أن الفضل والنبوة بيد الله، وهو الحكيم فى تصرفه والعليم بما ينفع الناس، كما أنها حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم، بأن ما يبيتونه لهم لن يضرهم ما داموا معتصمين بكتاب ربهم وسنة نبيهم.



النســـخ

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ ﴾

المفردات:

النسخ : فى اللغة الإزالة، يقال نسخت الشمس الظل: أى أزالته.

الإنساء : إذهاب الآية من ذاكرة النبى صلى الله عليه وسلم بعد تبليغها إياه. (أو ننسها) نبح لكم **تركها من نسى** : بمعنى ترك، دخلت عليه الهمزة للتعدية، قال أبو على وغيره من أئمة اللغة: هذا متجه، **لأنه بمعنى** : نجعلك تتركها. وقرئ ننسأها - بفتح النون مهموزا - من نسأه إذا أخره، أى نؤخر نزولها عليكم.

الولى : من يلى أمرك أو يملك كالمولى.

النصير : المعين.

سبب النزول:

روى أن هذه الآيات نزلت حين قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدًا، فقد أمر فى حد الزنى بإيذاء الزانيين باللسان، حيث

قال: (فآذوهما) ثم غيره وأمر بإمساكهن فى البيوت حيث قال: فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ (النساء : ١٥) ثم غيره بقوله: فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ . (النور : ٢) فما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه يناقض بعضه بعضا، ومقصدهم من ذلك الطعن فى الدين ليثبطوا عزيمة من يريد الدخول فيه.

التفسير:

١٠٦ - مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أى شىء من الآيات والأحكام ننهى عن التعبد به، أو نجعلكم تتركونه، نأتى بأفضل منه: مثوبة أو نفعًا أو خفة على المكلفين، أو نأتى بمثله فى ذلك، فإن تنزيل الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية، يكون وفقًا للحكم والمصالح، وذلك يختلف باختلاف الأحوال فرب حكم تقتضيه الحكمة فى حال، وتقتضى نقيضه فى حال أخرى. فلو لم يجز النسخ، لاختل ما بين الحكمة والأحكام من النظام. وهذا الحكم غير مختص بالآية الواحدة كاملة، بل هو جار فيما فوقها وما دونها وتخصيصها بالذكر، باعتبار الغالب.

لقد كان هناك تدرج فى تشريع الأحكام بما يتناسب مع كل مرحلة، فحين كان المسلمون فى مكة قبل الهجرة ضعافًا فى العدة والعدد أمرهم الله بالصبر والاحتمال، ولما هاجروا إلى المدينة وقامت دولتهم وقويت شوكتهم سمح الله لهم بالجهاد والقتال، وقال سبحانه:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ. (الحج : ٣٩ - ٤٠)

وقد قال بعض المفسرين إن هذا نسخ، أى نسخت آية القتال الأمر بالصبر والاحتمال - ولكن الزركشى فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) جعله من باب التدريج فى التشريع.

فقد ناسب حال الضعف والقلة الصبر والاحتمال كما ناسب حال القوة والكثرة، الدعوة للجهاد والقتال. فكلما كان المسلمون ضعافًا ناسبهم الصبر والمهادنة، وكلما كانوا أقوياء ناسبهم الجهاد والمقاتلة.

وقال بعض المفسرين إن المراد من الآية الشريعة، والمراد من نسخها على هذا تغييرها بشريعة أخرى تأتى بعدها.

أى ما نغير شريعة من الشرائع المعلومة للناس كالتوراة والإنجيل والزبور أو نجعلها منسية دارسة لا علم للناس بها، كالشرائع المجهولة لنا النازلة على بعض من قصهم الله علينا من الأنبياء، ومن لم يقصصهم علينا.

نأت بشريعة خير منها أو مثلها حسبما ينبغى لحال الأمة التى شرعت لها. ومن الباحثين من قال: المراد من الآية المعجزة، ونسخها تغييرها، ويكون معنى الآية: ولقد طلبوا منك يا محمد أن تأتيهم بالمعجزات التى جاءهم بها موسى وأنبياء بنى إسرائيل، وحسبنا أننا أيدناك بالقرآن، وأننا إذا تركنا تأييد نبى متأخر بمعجزة كانت لنبى سابق أو أنسينا الناس أثر هذه المعجزة فإننا نأتى على يديه بخير منها أو مثلها فى الدلالة على صدقه فالله على كل شىء قدير.

ما هو النسخ:

النسخ فى اللغة الإزالة والإبطال، يقال نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وأبطلته.

والنسخ شرعا: إزالة حكم شرعى سابق بخطاب ورد متأخرًا عنه لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته بمقتضى النص الذى تقرر به أولاً.

وقد أنكرت النسخ طوائف من اليهود، زاعمين أن ذلك من البداء، وهو مستحيل على الله، وقد كذبوا، فإن النسخ هو النقل من حكم إلى حكم لضرب من المصلحة.

ولا خلاف بين العقلاء فى أن شرائع الرسل قصد بها مصالح الخلق الدنيوية والأخروية.

وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه أولا والعدول عنه كقولك لشخص امض إلى فلان ثم يبدو لك نقض الرأى الأول فتقول لا تمض. على سبيل التناقض والتقلب فى الرأى، وهذا محال على الله تعالى. لكمال علمه وحكمته.

ونسخ الحكم إما أن يكون بأيسر منه فى العمل كما نسخت عدة المتوفى عنه زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، وإما بمساو له كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة، وإما بأشق منه يكون ثوابه أكثر كما نسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين.

قال الأستاذ سيد قطب:

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . سواء كانت المناسبة هى مناسبة تحويل القبلة، كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها، أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأمور والتشريعات والتكاليف، التى كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة وأحوالها المتطورة، أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التى وردت فى التوراة مع تصديق القرآن فى عمومه للتوراة.

سواء كانت هذه أم هذه، أم هذه، أم هى جميعًا المناسبة التى اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك فى صلب العقيدة ... فإن القرآن يبين هنا بيانًا حاسما فى شأن النسخ والتعديل، وفى القضاء على تلك الشبهات التى أثارتها اليهود، على عادتها وخطتها فى محاربة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . الخطاب فيه لكل من لديه علم وعقل، والاستفهام للتقرير، والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلم المخاطب بأنه تعالى : عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . على قدرته على النسخ، والإتيان بما هو خير من المنسوخ أو مثله.

١٠٧ - أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٢٦٥). لما ذكر فى الآية السابقة أنه تعالى على كل شىء قدير ذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو أنه تعالى له ملك السماوات والأرض واستشهد على ذلك بعلم كل ذى علم.

والمعنى : أنه سبحانه مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية وهو سبحانه المتصرف كما يشاء فى ذواتها

وأحوالها. وأنه سبحانه يتصرف فى أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتعبدهم به من ناسخ ومنسوخ.

والخطاب هنا للمؤمنين يحمل رائحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولى ولا نصير.

قال ابن كثير:

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾. يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر، وهو المتصرف. فكما خلقهم كما يشاء، ليسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصح من يشاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم فى عباده بما يشاء، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبيح ما يشاء ويحظر ما يشاء، وهو الذى يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره، واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا: وامتثال ما أمروا به، وترك ما عنه زجروا، وفى هذا المقام رد عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم - لعنهم الله - فى دعوى استحالة النسخ، إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفرًا، وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا. وقال الإمام أبو جعفر الطبرى: فتأويل الآية: ألم تعلم يا محمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى، أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء وأنهى عما أشاء وانسخ وابدِّل وأغيِّر من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذا أشاء، وأقر فيهما ما أشاء.

ثم قال: وهذا الخبر وإن كان من الله تعالى خطابًا لنبيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وعلَّق ابن كثير على كلام الطبرى بقوله:

قلت: الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء، كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحًا لإسرائيل وبنيه، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها، وأشياء كثيرة يطول ذكرها، هم يعترفون بذلك ويصدقون عنه، أو ما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة فى المعنى، إذ هو المقصود، كما فى كتبهم مشهورًا من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، والأمر باتباعه فإنه يفيد وجوب متابعته -عليه السلام - وأنه لا يقبل عمل إلا شريعته وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مغياة إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخا، كقوله. ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. أو قيل إنها مطلقة. وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته، لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهدًا بالله تبارك وتعالى (٢٦٦).

١٠٨ - أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ. نهى القرآن عن سؤال النبى صلى الله عليه وسلم على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتا وتكذيبا وعنادا. قال تعالى:

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .

وقد اختلف المفسرون فى سبب نزول الآية .. أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ . والراجح انها نزلت فى شأن اليهود حين قالوا يا محمد ائتنا بكتاب من السماء جملة، كما أتى موسى بالتوراة جملة.

واختار هذا الإمام الرازى وقال: إنه الأصح لأن الحديث من أول قوله تعالى: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ، (البقرة : ٤٠) إلى حكايته عن اليهود ومحاجته معهم، ولأنه جرى ذكرهم قبل ذلك دون غيرهم.

وقيل إنها تنزلت فى المؤمنين توصية لهم بالثقة بالرسول صلى الله عليه وسلم وترك الاقتراح عليه. وقد ذهب إلى هذا الرأى ابن كثير فى تفسيره.

ويكون معنى الآية:

لا يصلح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالبينات مطالب تدل على تعنتهم وجهلهم، فقالوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣) وقالوا: اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. (الأعراف : ١٣٨) ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان ولخرجتم على الصراط المستقيم الذى يدعوكم إليه نبيكم صلى الله عليه وسلم.

فالاستفهام فى الآية الكريمة للإنكار وفى أسلوبها مبالغة فى التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم السؤال. وفى النهى عن إرادة الشىء، نهى عن فعله بأبلغ عبارة.

قال ابن كثير:

نهى الله تعالى فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل حدوثها كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ.

أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشىء قبل وقوعه، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء فى الصحيح: « إن أعظم المسلمين جرمًا من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » (٢٦٧).

وثبت فى الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال » (٢٦٨).

وفى صحيح مسلم: « ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » (٢٦٩).

وروى البزار عن ابن عباس قال: ما رأيت قومًا خيرًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن اثنتى عشرة مسألة، كلها فى القرآن: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، و يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ . يعنى هذا وأشباهه (٢٧٠).



تحـــذير

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾

المفردات:

ود	: تمنى وأحب.
فاعفوا واصفحوا	: العفو: ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم عليه، وهو أبلغ من العفو، إذ قد يعفو ولا يصفح.
حتى يأتى الله بأمره	: بإذنه ومعونته.
تجدوه عنه الله	: تجدوا ثوابه عنده.
واقيموا الصلاة	: أدوها بأركانها وشروطها وهيئاتها فى أوقاتها، وأصله أفعل من قام الحق: ظهر وثبت، أى أظهروها على النحو الذى يرتضيه الشارع.

معنى الآيتين:

ولقد تمنى كثير من اليهود أن يردوكم إلى الكفر بعد إيمانكم، مع أنه قد تبين لهم من كتابهم نفسه أنكم على الحق، وما ذلك إلا أنهم يحسدونكم ويخشون أن ينتقل إليكم السلطان ويفلت من أيديهم، فأعرضوا عنهم، واعفوا واصفحوا حتى يأذن الله لكم بمسلك آخر حيالهم فهو القادر على أن يمكنكم منهم، وهو على كل شىء قدير.

وحافظوا على شعائر دينكم، فأقيموا الصلاة، واعطوا الزكاة، وما تقدموا لأنفسكم من أعمال طيبة وصدقة تجدوا ثوابه عند الله إن الله بما تعملون عليم، علم من يبصر ويرى.

متعلقات المعنى:

١ - قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا . بيان للون من ألوان الشرور التى يضمرها أهل الكتاب، وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق إلى الكفر الذى أنقذهم الله منه، وإنما أسند سبحانه هذا التمنى الذميم إلى الكثرة منهم، إنصافًا للقلة المؤمنة التى لم ترض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام.

٢ - يشير قوله تعالى: حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم . إلى أن تمنى كفر المؤمنين لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذى استولى على نفوس اليهود، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان، ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

(والحسد): قلق النفس لرؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير، وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والفساد، فإن تمنى زوالها كراهة للجور والفساد لا يدخل فى قبيل الحسد المذموم، فإن لم تتمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهى الغبطة والمنافسة، وهى محمودة لأنها قد تنتهى بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المنافسة لظل فى غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون فى وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القدح فى المحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه) [٢٧١].

وفى الحديث الشريف: « ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد، والطيرة، والظن، قيل: فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تتبع » [٢٧٢].

فهذه الأشياء تهجم على الإنسان، والمؤمن مطالب بألا يسترسل فيها فإذا حسد أو أحس ببوادر الحسد فلا ينبغى له العدوان أو القدح أو البغى على المحسود.

وإذا تطير وتشاءم من شىء فلا يرجع ولا يسترسل فى تشاؤمه بل يقل: « اللهم لا يأتى بالخير إلا أنت، ولا يذهب السوء إلا أنت اللهم اكفنى السوء بما شئت إنك على ما تشاء قدير».

وإذا ظن الإنسان بآخر فلايسترسل فى تتبعه، ولا يتابعه بالتجسس عليه، وبذلك يسلم المسلم من بوادر هذه الأمور الثلاثة حيث يوقفها عند حدها، ولا يسمح لها بالتعدى على الآخرين.

٣ - قوله تعالى: مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت بعد أن ظهر لهم صدق النبى صلى الله عليه وسلم، وبعد أن تبين لهم أن الصفات التى وردت فى التوراة بشأن النبى المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذًا فكفرهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، ذلك هو شأن أحبارهم الذين كانو على علم بالتوراة. وتبشيرها بالنبى صلى الله عليه وسلم.

٤ - قوله تعالى: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أى لا تعاقبوهم ولا

تلوموهم حتى يأذن الله بالقتال في الوقت الذي يختاره لكم ، وقد أنزل الله تعالى بعد ذلك الإذن بقتال اليهود فى قوله: قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ . (التوبة : ٢٩) كما أذن بإجلائهم عن المدينة.

٥ - قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار:

قال الأستاذ الإمام: وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول:

لا يغرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للقوى الجاهل، وفى إنزال المؤمنين على ضعفهم منزلة الأقوياء ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذى يصرع الباطل كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه [٢٧٣].

١١٠ - وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

أمر الله المسلمين بالمحافظة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهى الصلاة، والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب الموسرين والمعسرين وهى الزكاة.

وجاءت جملة: وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ .

لترغيبهم فى فعل الخير على وجه عام ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضًا أم نفلاً.

وجاءت جملة: إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، لتاكيد ذلك المعنى.

روى أن الإمام على كرم الله وجهه كان إذا دخل المقبرة قال: السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة، والمحال المقفرة، من المؤمنين والمؤمنات، ثم قال: أما المنازل فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، وأما الأزواج فقد نكحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شعرى ما عندكم؟ والذى نفسى بيده لو أن لهم فى الكلام لقالوا: إن خير الزاد التقوى.

وفى الحديث الصحيح: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له » [٢٧٤].

★ ★ ★

أمـــانىُّ كاذبـة

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

المفردات:

هودا : جمع هائد، كعوذ جمع عائذ، ومعنى الهائد فى الأصل التائب والمقصود هنا بالهود: اليهود.

أو نصارى : يعنون المسيحيين، جمع نصران ونصرانة، سموا بذلك نسبة إلى بلدة الناصرة التى كان ينزل بها عيسى، أو لأنهم أجابوا عيسى إلى نصره لما قال لهم: من أنصارى إلى الله؟.

الأمانى : واحدها أمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه، والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنيا وغرورًا، وضلالا وأحلاما.

برهانكم : حجتكم.

إسلام الوجه لله : هو الانقياد والإخلاص له فى العمل بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسطاء.

التفسير:

قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا، يعنون بذلك: أن المسلمين لن يدخلوها، تنفيرًا للمسلمين من دينهم، وإثارة للفتنة بينهم، لأنهم كما تقدم يودون ردتهم.

وجمع بين كلام الفريقين فى النظم الكريم للإيجاز، وثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، لأن العداوة بين الفريقين معلومة [٢٧٥]، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون فقال تعالى: **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** . أى قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس: هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم إن كنتم صادقين فى دعواكم.

لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحى من الله وليس لمجرد التمنى، أمر الله تعالى نبيه أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

١١٢ - **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** . أى: بلى يدخل الجنة من أخلص نفسه وذاته لله، فآمن به ونزهه تعالى عن الولد (وهو محسن) فى جميع أعماله التى منها الإسلام.

والإحسان أداء العمل على وجه حسن أى مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف.

ومقصود الآية ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، وينال أجره اللائق به ولا يخاف فى الدارين من لحوق مكروه ولا يحزن على فوت مطلوب.

وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتى:

١ - إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

٢ - بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة إلا إذا أسلموا وجوههم لله.

٣ - بيان أن العمل المقبول عند الله تعالى يجب أن يتوافر فيه أمران أولهما: أن يكون خالصا لله وحده. ثانيهما: أن يكون مطابقا للشريعة التى ارتضاها الله تعالى وهى شريعة الإسلام.

قال ابن كثير فى تفسيره:

فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة، فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » [٢٧٦] رواه مسلم من حديث عائشة.

فعمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال تعالى:

وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا . (الفرقان : ٢٣)

وقال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا. (النور:٣٩)

وروى عن أمير المؤمنين عمر: أنه تأولها فى الرهبان، وأما إن كان العمل موافقًا للشريعة فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضًا مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . (النساء:٣٩) وقال تعالى: فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ. (الماعون: ٤-٧)

ولهذا قال تعالى: فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا. (الكهف: ١١٠)

★ ★ ★

تهم متبـــادلة

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

المفردات:

قال الذين لا يعلمون : المراد بهم عبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم من الجهلاء.

مثل قولهم : بأن قالوا عن أهل كل دين آخر: ليسوا على شيء.

التفسير:

أنكرت اليهود رسالة المسيح مع أن التوراة بشرت به، ومازالوا يزعمون أن المسيح المبشر به فى التوراة لم يأت وسيأتى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من التدين.

والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق يطعن فى دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق، ثم بين الله مدى جهلهم وعنادهم جميعًا فقال سبحانه: وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ . وهى جملة حالية، والكتاب للجنس، أى قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرؤون التوراة والنصارى يقرؤون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرها من كتب الله وآمن بها ألا يكفر بالباقى لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى، شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعًا متواردة على تصديق بعضها بعضًا.

كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ. أى مثل هذا القول الذى لم يبن على برهان، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين: لستم على شيء، والحق وراء هذه المزاعم، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرفه الناس حق المعرفة لما تفرقوا ولا اختلفوا فى أصوله، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا وتفرقوا طرائق قددا.

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . صدرت هذه الجملة بالفاء، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكنته ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع من هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد.

والضمير فى بينهم (راجع إلى الفرق الثلاث، وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى).

قال ابن كثير:

قوله تعالى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد

ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج فى الآية ١٧ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . وكما قال تعالى: قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٧٧).

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يحكم الله بينهم، فإنه من المعلوم من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق وعقاب من كان على باطل.

قال الزمخشرى: فَاللَّهُ يَحْكُمُ . بين اليهود والنصارى. يَوْمَ الْقِيَامَةِ . بما يقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه، وعن الحسن: حكم الله أن يكذبهم ويدخلهم النار (٢٧٨).



تخريب المساجد

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾

المفردات:

من أظلم : استفهام إنكارى بمعنى النفى، والمعنى: لا أحد أظلم.

مساجد الله : المراد بها جميع مساجد الله وأماكن عبادته، فالآية قاعدة عامة وإن كان سبب النزول خاصًا كما سيأتى.

لهم فى الدنيا خزى : هوان وذلة.

تمهيد:

تعددت أقوال المفسرين فيما تشير إليه الآية :

١ - فيرى بعض المفسرين أنها تشير إلى ما وقع من تيطس الرومانى إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخرب المسجد حتى لم يبق منه حجرًا على حجر، وهدم هيكل سليمان حتى لم يترك إلا بعض جدران مبعثرة. وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان هذا بإيعاز وتحريض من المسيحيين انتقاما من اليهود.

٢ - ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى كفار قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية، روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن قريشًا منعوا النبى صلى الله عليه وسلم من الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأنزل الله. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ.

ويرجح ابن جرير الطبرى القول الأول، واحتج بأن قريشًا لم تسع فى خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس.

وقال ابن كثير: الذى يظهر والله أعلم القول الثانى: وأما اعتماد ابن جرير على أن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة فأى خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم، قال تعالى: **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ**.

فإذا كان الرسول مطرودًا منها مصدودًا عنها فأى خراب للكعبة أعظم من ذلك؟ وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، وإنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك(٢٧٩).

والمتأمل فى الآية يرى أنها عامة، تشمل بذمها ووعيدها كل من عطل المساجد عن أداء رسالتها، أو أرهب المؤمنين ومنعهم من دخولها.

قال القرطبى: وخراب المساجد قد يكون حقيقيًا، كتخريب بختنصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه، ويكون مجازًا كمنع المشركين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها (٢٨٠).

وظاهر الآية يفيد أنه لا يوجد أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله.

قال الزمخشرى: إن قلت: فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجىء الحكم عامًا، وإن كان السبب خاصًا، كما تقول لمن آذى صالحًا واحدًا : من أظلم ممن آذى الصالحين، كما قال عز وجل.

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ . والمنزل فيه الأخنس بن شريق.

وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ،بانقطاع الذكر أو بتخريب البنيان، وينبغى أن يراد بمن منع العموم كما أريد بمساجد الله ، ولا يراد الذين منعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين (٢٨١).

أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ. معناه ما ينبغى لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون فى خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله تعالى لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه تعالى، أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم عقوبة لهم على إفسادهم لدين الله وبيوته.

أى أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مستجيرين محتمين بحرمتها مستأمنين (وذلك كالذى حدث فى عام الفتح بعد ذلك إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: من دخل المسجد الحرام فهو آمن .. فلجأ إليه المستأمنون من جبابرة قريش بعد أن كانوا هم الذين يصدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ويمنعونهم من زيارة المسجد الحرام) (٢٨٢).

قال ابن كثير: (وفى هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويذل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب) (٢٨٣).

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ. أى لهم فى الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه فى النار، وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه فى هوان ومذلة ثم يلقى العذاب العظيم فى الآخرة.

وفسر قتادة الخزى فى الدنيا: بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون (والصحيح أن الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد فى الحديث الاستعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة).

روى الإمام أحمد عن بُسر بن أرطاة، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة) وهذا حديث حسن (٢٨٤).



فضل الله

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

المفردات:

المشرق : موضع الشروق.

المغرب : موضع الغروب، والمراد بهما هنا: هما وما بينهما من الجهات والأماكن.

فثم وجه الله : أى فهناك جهته، أى قبلته التى أمر عباده أن يتجهوا إليها فالوجه والجهة شىء واحد.

إن الله واسع عليم : أى يوسع على عباده، أو لا يحصر ولا يتحدد، أو واسع العلم محيط بما تستطيعون علمه فلا يكلفكم ما يشق عليكم.

التفسير:

وردت عدة روايات فى معنى هذه الآية وأسباب نزولها، ومن هذه الروايات ما يأتى:

١ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ذلك.

١١٥ - ولهذا يقول تعالى : **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** . روى أبو عبيدة القاسم بن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ عن ابن عباس قال: أول ما نسخ من القرآن، فيما ذكر لنا والله أعلم، شأن القبلة، قال الله تعالى: **وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ** . فاتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاته نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه الله إلى بيته العتيق ونسخها فقال:

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (٢٨٥).

٢ - **وقال ابن عمر وآخرون:** نزلت هذه الآية إذنا من الله أن يصلى المتطوع حيثما توجهت به راحلته من شرق أو غرب، وفى حال المسايفة وشدة الخوف.

أخرج مسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيث كان وجهه وفيه نزلت : فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ (٢٨٦). نقله القرطبى، ونقله أيضًا ابن كثير عن ابن جرير الطبرى.

٣ - **وقال آخرون:** بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض الله التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهًا من ذلك وناحية إلا كان علم الله جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشارق والمغارب كما قال تعالى: وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا. (المجادلة : ٧)

قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام (٢٨٧).

٤ - **وقال آخرون:** بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى لىَ المشارق والمغارب، فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهى وهو قبلتكم، فعليكم بذلك إن صلاتكم ماضية.

روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ما بين المشرق والمغرب قبلة » قال الترمذى: حسن صحيح (٢٨٨).

وقال: وقد روى من غير واحد من الصحابة (ما بين المشرق والمغرب قبلة) منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس.

٥ - **قال ابن جرير :** ويحتمل: فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهناك وجهى أستجيب لكم دعاءكم، ثم روى عن مجاهد قال: لما نزلت ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، قالوا: إلى اين؟ فنزلت: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ.

وإذا ربطنا الآية بما سبقها من أن الظالمين قد يمنعون المصلين من الصلاة فى مساجد الله. رأينا أن المقصود من الآية الإذن بإقامة الصلاة فى أى مكان من الأرض دون أن تختص بها المساجد ففى الحديث الشريف « جعلت لى الأرض مسجدًا وترابها طهورًا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل » (٢٨٩).

وكان السابقون لا يصلون إلا فى بيعهم أو كنائسهم وكأن الآية تومئ إلى أن سعى أولئك الظالمين فى منع المساجد من أداء رسالتها وتخريبها لا يمنع من أداء العبادة، لأن لله المشرق والمغرب وما بينهما فأينما حل الإنسان واتجه بعبادة إلى الله فهى مقبولة، والله تعالى راض عنه مقبل عليه. **إن الله واسع** . يوسع على عباده فى دينهم ولا يكلفهم بما ليس فى وسعهم . **عليم**. بمصالحهم وبما يعملون فى مختلف أماكنهم.

★ ★ ★

تنزيه الله عن الولد

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾

المفردات:

اتخذ	: من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل.
الولد	: تطلق على الذكر والأنثى والواحد والجمع.
سبحانه	: تنزيهًا وتبرئة لله لائقة به مما قالوا.
قانتون	: منقادون خاضعون.
بديع	: البديع بمعنى المبدع، والإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سابق.
بديع السموات والأرض	: مبدعهما ومخترعهما على غير مثال سابق، وكما يأتى فعيل بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، يأتى فاعل كما هنا ونظيره السميع بمعنى المسمع فى قول الشاعر: (أمن ريحانة الداعى السميع). وكل من أنشأ ما لم يسبق يقال له مبدع ومنه أصحاب البدع.

التفسير:

جاء الإسلام بتوحيد الخالق وتنزيهه عن الولد بين أهل كتاب ومشركين يزعمون أن لله ولدا.

فاليهود يزعمون أن عزيرًا ابن الله، والنصارى يزعمون مثل ذلك لعيسى، والمشركون يزعمون مثله للملائكة فيقولون إنها بنات الله. ولا فارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو بعضها فإن أفرادها متكافلون فى كل ما يعملون وما يقولون، مما يعود أثره من خير أو شر إلى الجميع. فيصح أن يكون الضمير فى. وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . عائدًا إلى الفرق الثلاث أو على بعضهم، فمن المعروف أن القرآن يجرى على الأسلوب المعروف فى المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر عن بعضهم فحين قال: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ . (التوبة : ٣٠) أصبح من السائغ فى صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم.

سُبْحَانَهُ : أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك تعالى علوا كبيرًا، لاقتضاء الوالدية الجنسية والتناسل والافتقار والتشبيه والحدوث.

بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ : إضراب عن مقالتهم التى نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد وشروع فى الاستدلال على بطلانها. قال ابن كثير:

«أى ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السماوات والأرض وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم

ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له. فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟».

كما قال تعالى: بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

وقال تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا. (مريم: ٨٨ - ٩٥)

وقال تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ. (الإخلاص)

فقرر تعالى فى هذه الآية الكريمة: أنه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟

وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال:

لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم (٢٩٠).

كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد، خاضعون لا يستعصى منهم شىء على مشيئته وإرادته، شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة من الخضوع، وإنما جاء قَانِتُونَ. بجمع المذكر المختص بالعقلاء، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم ، تغليبًا للعقلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره فى غيرهم.

وفصلت جملة: كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ. عن سابقتها لقصد استقلالها بالاستدلال على نفى أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل المسوق له قوله تعالى: لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ.

١١٧ - بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ. أى مبدع السماوات والأرض ومنشئهما بلا احتذاء ولا اقتداء وبلا آلة ولا مادة، صفة مشبهة من أبدع، والذى ابتدعهما من غير أصل ولا مثال هو الله تعالى، وخص السماوات والأرض بالإبداع لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: سبحان الله، أنى يكون له ولد وهو مالك السماوات والأرض، تشهد له جميعها - بدلالتها عليه - بالوحدانية وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد به بذلك المسيح الذى أضافوا إلى الله بنوته وإخبار منه

لهم أن الذى ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال - هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته [٢٩١].

وقوله تعالى: وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ . معناه وإذا أراد سبحانه إحداث أمر من الأمور حدث فورًا. و. كُن فَيَكُونُ . فعلا الكون بمعنى الحدوث، ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل لحدوث ما تتعلق به إرادته سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففى الكلام استعارة تمثيلية.

وقال الزمخشرى: كُن فَيَكُونُ . من كان التامة أى أحدث فيحدث، وهذا مجاز من الكلام تمثيل ولا قول ثم، وإنما المعنى: أن ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف. كما أن المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام فى توالدها [٢٩٢].

ويرى آخرون أن الأمر بكن محمول على حقيقته، وأنه تعالى أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أزلا.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكتا بعض الشبهات الباطلة التى أوردها الضالون حول وحدانية الله، وردتا عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.



تعنت وعناد

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

المفردات:

لولا : كلمة لحض الفاعل على الفعل وطلبه منه.

الآية : الحجة والبرهان.

التشابه : التماثل.

اليقين : هو العلم بالدليل والبرهان.

تمهيد :

اختلف المفسرون فى المراد من الذين لا يعلمون:

١ - فقال ابن عباس هم اليهود، ويؤيد هذا الرأى أن السياق من أول السورة فى الحديث عن اليهود. وأن القرآن قد حكى عنهم سؤالهم لموسى عددًا من الآيات على سبيل التعنت والمكابرة.

قال تعالى: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣)

وقال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً. (البقرة : ٥٥)

٢ - وقال مجاهد هم النصارى، وهو اختيار ابن جرير الطبرى لأن السياق فيهم، قال ابن كثير: وفى هذا الكلام نظر، أى فهو لا يسلم أمام المناقشة، فليس النصارى وحدهم الذين . قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا .(البقرة : ١١٦) وإنما اليهود أيضا قالوا ذلك، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. (التوبة:٣٠).

٣ - وأكثر أهل التفسير على أن المراد من . الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ . هم مشركو العرب، ويؤيد هذا القول أن القرآن المكى قد حكى عنهم الكثير من التعنت والعتو وسؤالهم ما لا حاجة لهم به وإنما هو الكفر والمعاندة. قال تعالى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ . (الأنعام : ١٢٤)

وقال تعالى: وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا . (الإسراء : ٩٠ - ٩٣)

وقال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا . (الفرقان : ٢١)

وقد عبر القرآن عنهم بالذين لا يعلمون استهجانا لذكرهم لقبح ما صدر عنهم، ولأن ما يحكى عنهم لايصدر إلا عن الجهلاء.

ولا يبعد أن يكون المراد من الذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة من اليهود والنصارى والعرب. ويكون الأميون من المشركين هم المقصودون قصدًا أوليًا، فكثيرًا ما تحدوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله أو تأتيهم خارقة من الخوارق المادية.

كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ. اى مثل هذه الأسئلة التى يراد بها التعنت قد قالها من قبلهم من الأمم السابقة، أو من اليهود والنصارى.

إذ قالوا: أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٣)

وقالوا: لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ . (البقرة : ٦١)

وقالوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ . (المائدة : ١١٢)

وقالوا: اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ. (الأعراف: ١٣٨)

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ. أى: تشابهت قلوب السابقين مع قلوب اللاحقين فى الكفر والإعراض عن الحق والعناد والمكابرة.

والمعنى: أن تشابه أقوالهم نابع من تشابه قلوبهم، كما قال تعالى: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ.

قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. أى اننا لم نتركك بلا آية بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع مجالا للريب.

قال ابن كثير:

أى قد وضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاءوا به من الله تبارك وتعالى، وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ. (يونس: ٩٦)



البشير النذير

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

المفردات:

الحق : هو الشىء الثابت المتحقق الذى لا شك فيه.

بشيرا : البشير: المبشر وهو المخبر بالأمر السار للمخبر به الذى لم يسبق له علم به.

نذيرًا : النذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخيف ليحذر منه.

الجحيم : المتأجج من النار، وأصحابها الملازمون لها، والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم.

التفسير:

لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم ولست مسئولا عن عدم اهتدائهم. وهذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وبيان لمهمته كى يتوجه إليها بكليته ولا يلتفت إلى معارضة أهل الكتاب والمشركين، بعدما سجل تعنتهم.

وعن ابن عباس قال: بشيرًا بالجنة ونذيرًا من النار.

وروى أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة؟ فقال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . (الأحزاب : ٤٥) وحرزا للأميين، وأنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، لا فظ ولا غليظ ولا صخَّاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عميا وآذانًا صما وقلوبًا غلفا (٢٩٣). انفرد بإخراجه البخارى ورواه ابن مردويه.

١٢٠ - وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ . تحذر هذه الآية الأمة المحمدية من اتباع اليهود والنصارى والتفريط فى أمور دينهم.

ولقد حرص السلف الصالح على التمسك بدينهم فنالوا عز الدنيا وشرف الآخرة.

ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى فزادوا فى التشبه بهم قليلا قليلا.

ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوروبا الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرمات يصرحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة، ثم صاروا ينبذون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التى هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد والرجعية - لينفروا الناس منها.

بل إن بعض الماجنات ينشرن فى الصحف الدعوة السافرة إلى السفور، فلئن لم يدفع المسلمون هذه المنكرات عن دينهم وبلادهم، ليسلطن الله عليهم عدوهم وليستبدلن بهم قومًا غيرهم. قال تعالى: وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ . (٢٩٤)

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لرسوله غاية أعدائه من اقتراح الآيات، ويحذره منهم فقال ما معناه: إن اليهود والنصارى يقترحون الآيات تعجيزًا لا طلبا للهداية، فلو أتيتهم يا محمد بكل ما يسألون فلن يرضوا عنك ولن تنال رضاهم حتى تتبع دينهم الزائف المحرف.

قال ابن جرير الطبرى: يعنى جل ثناؤه بقوله: وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

وليست اليهود - يا محمد - ولا النصارى براضية عنك أبدا، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق، وقوله تعالى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ. يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل: وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ. فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، عياذا بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمته (٢٩٥).

وبعد أن ذكر القرآن فى الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ فى بيان حال المؤمنين منهم فقال:

١٢١ - الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. المراد بالذين أوتوا الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب، والمراد بالكتاب : التوراة والإنجيل.

قال قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن أسلم، واختاره ابن جرير الطبرى.

وحمل بعض المفسرين الآية على أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم والكتاب على القرآن. والرأى الأول أولى. فإن عرف القرآن جرى على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، ولم يذكر المسلمون فيه إلا بعنوان المسلمين والمؤمنين، كما أن السياق واللحاق فى بنى إسرائيل.

ومعنى الآية:

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ .أى من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد. أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ . أى بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره ومؤازرته. وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

والكفر بالكتاب يتحقق بتحريفه وإنكار بعض ما جاء فيه، أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين، وهم الخاسرون فى الآخرة، حيث خسروا نعيم الآخرة وحق عليهم العذاب الذى أعده الله للكافرين.

أو معنى: وَمَن يَكْفُرْ بِهِ : ومن يكفر بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ويكتم صفته ونعته فقد خسر الهدى فى الدنيا والسعادة فى الآخرة.

ملحقات:

قال عبد الله بن مسعود: والذى نفسى بيده إن حق تلاوته: أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئًا على غير تأويله.

وعن ابن عباس: يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ. قال: يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ: وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. يقول اتبعها، وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد نحو ذلك (٢٩٦).

٢ - فى الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه لا حظ لهم من الإيمان لأنهم لايفقهون هداية الله فيه ولا تصل العظة إلى أفئدتهم بتلاوته.

قال تعالى: لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ. (ص: ٢٩). ولكن وا أسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع (والقرآن حجة لك أو عليك).



أنعـــم اللـــه

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (١٢٢) وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾

المفردات:

إسرائيل : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام.

اذكروا نعمتى التى انعمت عليكم : تذكروا ما انعمت به عليكم من الإنجاء من بطش الفراعنة، وإنزال التوراة وغير ذلك. والمقصود من أمرهم بتذكرها أن يشكروها بالإيمان بما يجب الإيمان به.

وأنى فضلتكم على العالمين : على عالمى زمانهم.

واتقوا يوما : المراد باليوم يوم القيامة، وباتقائه: التحفظ من عقابه.

لا تجزى نفس عن نفس شيئاً : لا تحمل عنها شيئًا من جزاء عملها.

ولا يقبل منها عدل : لا يقبل منها فداء.

تمهيد:

يذكر الله بنى إسرائيل بنعمه التى انعمها عليهم، وقد سبق التذكير بهذه النعم فى الآيتين ٤٧، ٤٨ من هذه السورة. ولكنه كرر تذكيرهم بها هنا تاكيدًا لوجوب شكرها بالإيمان، وليرتب على الكفر بها الوعيد الشديد يوم القيامة.

التفسير:

يا أبناء النبى إسرائيل تذكروا ما أنعمنا به من النعم على آبائكم. ومن أجل ما أنعم الله به عليهم التوراة، وفيها وصف النبى صلى الله عليه وسلم ونعته وأمره وأمته. قال ابن كثير: «يحذرهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بنى عمهم من العرب

على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيدة عن موافقته.

وقد فضل الله اليهود على عالمى زمانهم بما آتاهم الله من التوراة دونهم وهذا التفضيل مرتبط بأسبابه وهو اتباع التوراة والعمل بها وتنفيذ أوامرها واجتناب نواهيها، فإذا أهملوا أوامر الله، وكتموا بعضها، وحرفوا وبدّلوا بعض ما فى التوراة، فقد فقدوا أسباب التفضيل واستحقوا اللعنة والطرد والغضب.

كما ذكر ذلك القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا . (الجمعة : ٥)

ومثل قوله سبحانه: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. (المائدة : ٧٨ ، ٧٩).

١٢٣ – وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

تقول: جزى عنى هذا الأمر يجزى، كما تقول قضى يقضى زنة ومعنى. أى اتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدّلين كتابى، المحرّفين له عن وجهه، المكذبين برسولى محمد صلى الله عليه وسلم، عذاب يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئا من الحقوق التى لزمتها، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئًا كما ورد فى الصحيحين: «يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئًا».

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ : أى فداء مهما عظم لو وجدته.

وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ : ولا يشفع فيما وجب عليها من حق شافع (٢٩٧).

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ : أى لا يأتيهم ناصر ينصرهم فيمنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم.

والتعرض لنفى الفداء والشفاعة والنصرة فى هذا اليوم، لأنها هى الأمور التى اعتادها بنو آدم فى تخليصهم إذا وقعوا فى شدة.

وقد كان اليهود يعتقدون بالمكفرات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه، وبشفاعة أنبيائهم لهم، فأخبرهم الله أنه لا يقوم مقام الاهتداء والإيمان الحق شىء آخر.

★ ★ ★